كتاب

الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية

لمؤلف أندلسى من أهل القرن الثامن الهجرى

حققه

الدكتور سهيل زكار   الاستاذ عبد القادر زمامة

نشر وتوزيع

دار الرشاد الحديثة

كتاب

الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية

لمؤلف اندلسى من أهل القرن الثامن الهجرى

حققـــــه

الدكتور سهيل زكار		الاستاذ عبد القادر زمامة

نشر وتوزيـــع

دار الرشـــاد الحديثـــة

40 شـارع فكتور هيكو — تلفون : 27.32.56 — 27.48.27 — الدار البيضـاء

الطبعة الاولى 1399 — 1979

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

ان من ابرز اوجه النشاط الثقافى العربى فى ايامنا ، البحث فى تاريخ العرب والاسلام ، ومعلوم ان الشرط الاول لنجاح اعمال البحث التاريخى وسلامتها ، هو نشر المصادر الاصلية بشكل علمى صحيح ، وفى هذا المقصد نقدم للقارىء هذا الكتاب ، وهو « **كتاب الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشيـــة** » .

ان هذا الكتاب ، وهو على صغر حجمه يعد فى المصادر ، قديمـــا وحديثا ، من الامهات ، المعينة على البحث فى تاريخ دولتى المرابطـــين والموحدين ، اللتين امتد نفوذهما فى ارجاء المغرب الاسلامى بما فى ذلك شبه جزيرة الاندلس ، وبذلتا مجهودات وتضحيات جليلة من اجل ايقاف الزحف الصليبى العارم على مسلمى الاندلس ، هذا الزحف الذى شنته الممالك والامارات النصرانية ، التى تهيأت لها ظروف سياسية وفـــرص تاريخية من اجل تكوين وحدات ، رعتها البابوية ، فى شمال شبه الجزيرة مع شمالها الشرقى والغربى ، وساعدتها البيئة الطبيعية : من جبـــال عاليـــة ، واقاليم نائية ، وانهار جارية ، تقيم حولها الحصون والقـــلاع وتشيدها ، وتنفذ الهجمات والغارات التى خططت لها البابوية ، ومولتها .

وكانت هذه الممالك والامارات تحمل اسمـــاء : قشتالة ، وارغـــون ، وجليقية ، وبرتغال ، زيادة على امارة قطلونية فى الشمال الشرقى ، التى اطلت على البحر الابيض المتوسط من جهة ، وكانت تتصل بالامـــارات الفرنجية من جهة اخرى ، حيث تلقت الامدادات والاعانات .

وكانت هذه الممالك تعيش فى ذات الظروف التاريخية التى عاشتها اوربة الغربية بعد تفكك اوصال « الامبراطورية الكارلونجية » تجتمـــع وتفترق ، وتهب عليها رياح الوحدة ، وزعازع التمزق فيما بينها ، الا انها كانت ازاء مسلمى الاندلس وملوكهم وامرائهم ، ومدنهم وامصارهم ، تقف موقفا واحدا صلبا شرسا منسجما ، مع الموقف الذى كانت تقفه الحملات الصليبية الكبرى على المشرق الاسلامى — فى الشام ومصر وجزائر البحر

الابيض المتوسط ـــ فالعصر واحد ، والخطة واحدة ، والهدف واحد .

والمتتبع لفصول هذا الكتاب يجده من جهة الاطار الزمانى ، لا يقف عند حدود دولتى المرابطين والموحدين ، بل يتعداها : بشكل مقتضب ، ليلم بتاريخ دولة بنى مرين فى المغرب وبيئتها ، وظروف قيامها ، والملوك الذين تعاقبوا على حكمها ، وما قام به بعضهم من جهاد فى الاندلس ، على عهد دولة بنى الاحمر بغرناطة ـــ التى الف الكتاب فى ظلال نفوذها ، وكأنه يلبى رغبة ، أو يقضى دينا ، أو يحقق هدفا من أهداف احد ملوكها ، وهو « **محمد الغنى بالله** » كما سنرى فيما بعد . . . .

من اجل هذه الميزات التى ذكرنا وغيرها ، مما نجده داخل فصول الكتاب كان كتاب الحلل ، يبدو امام الباحثين ذا مكانة ، وثقل من ناحية المعلومات التى يقدمها والنصوص والوثائق ، التى يحتفظ بها ، والتى استقاها مؤلفها من مصادر جلها يعتبر الآن بحكم المفقود .

وينبغى ـــ بل يجب علينا ـــ هنا ان نصارح قراء هذا الكتاب ، ان مؤلفه ، لم يقصد به الاخبار المراكشية ، التى تتعلق بمدينة مراكش ، المدينة العظيمة ، الحافلة بالمعالم والآثار ، والتى كانت عاصمة لكل من دولتى المرابطين والموحدين ، وشهدت الاحداث الكبرى فى تاريخ المغرب والاندلس ، ووصفت بأنها « بغداد المغرب » ـــ بل انه قصد اشياء اخرى ، بعيدة عما يوحى به عنوان الكتب . . . .

اننا اذا استثنيا ما كتبه المؤلف ، عن تأسيس المدينة ، وما حققه تاريخ هذا التأسيس ، وما ذكره عرضا ، من مؤسسات المرابطين والموحدين بها ، وما ذكره فى خاتمة الكتاب من اجمالات تاريخية ، فاننا لا نجد شيئا ذا اهمية فى هذا الكتاب من اخبار مدينة مراكش ، فلا نجد فيه شيئا عن قصورها ومساجدها وحماماتها ، وبيمارستاناتها ، وأسواقها الكبرى ، وخططها ، التى تحدث عنها جغرافيون ورحالون عدة ، كما اننا لا نجد فى الكتاب ، شيئا قليلا أو كثيرا ، عن الاعلام الذين حلوا بها فى مختلف العصور ، وعلى هذا :

رغم ان هذا الكتاب يحمل عنوانا يضعه بين الكتب المؤلفة فى تاريخ المدن ، فهو فى فصوله ، ومادة ابحاثه ، لم يتقيد بفن تاريخ المدن وقواعده ، وانما تحدث عن تاريخ المغرب والاندلس فى حقبة نشطة ، فكان بذلك كتاب تاريخ عام ، ارخ لعدة دول ولم يؤرخ لمدينة مراكش . . . .

وعمل مؤلف هذا الكتاب يجرنا تلقائيا ـــ فى باب المقارنة والنقد ـــ الى

ان نقارن بين ماورد فى كتاب « الحلـــل » عن مراكش وبين ما ورد فى كتاب « **الانيـــس المطـــرب** » عن مدينة فاس ، والمؤلفان عاشا فى قرن واحد ، وهو القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر م ، الا ان ابن ابـــى زرع « صاحب الانيس » عاش فى بدايته « وعاش صاحب » الحلل فى نهايته ؛ ويبدو انه لا مجال فى حقيقة الامر للمقارنة بين عمل المؤرخين ، وذلك لان مؤلف « الانيـــس » مواطن مغربى ، عاش فى مدينة فاس ، وتقمص حضارتها ، ولابس معالمها وخططها ، بخلاف مؤلف « الحلل » ، فهو اندلسى الدار ، عاش فى ظلال دولة بنى الاحمر ، وربما لم تسمح لـــه ظروف حياته بالرحلة الى المغرب ، وحتى اذا كانت سمحت ، فانها كانت عملا عابرا ، لاداء اهداف معينة . . . .

الى هنا ونحن نتحدث عن الكتاب وقيمته التاريخية ، التى سيتأكد منها القارىء الكريم اثناء مطالعته ، ولكن اليس من المتعين علينا أن نعرف هوية مؤلف الكتاب والظروف التى أملت تأليفه ؟ .

نحن لا نستطيع الآن بحكم ما نملكه من مصادر أن نجزم جزما باعطاء اسم المؤلف ، وتاريخ حياته ، ولهذا سنبدا بالحديث عن الظروف التـــى املت تاليف الكتاب علها تقودنا الى معرفة المؤلف ، ولو بطريق الحدس والفرضيـــة . . . .

ذكر صاحب « الحلل الموشية » انه انجز تأليف كتابه « يوم الخميس الثانى عشر لشهر ربيع الاول من عام ثلاثة وثمانين وسبعمائة » ، فماذا كان يجرى فى المغرب والاندلس هذا العام ؟ .

من اجل الاجابة على هذا السؤال ، علينا الرجوع الى المصادر التاريخية المتعددة التى تناولت تاريخ المغرب والاندلس فى اواخر القرن الثامن للهجرة ، وهى مصادر كثيرة ومتنوعـــة المشارب والاساليـــب والالوان .

ومن خلال البحث المعمق فى هذه المصادر نجد ان المغرب عاش فى هذه الحقبة من الزمن ازمة سياسية كانت معقدة اشد تعقيد ، وقـــد مثلث فصول هذه الازمة المحزنة فى كل من غرناطة ، وفاس ، ومراكش مع اقاليم اخرى متعددة من شمال المغرب وجنوبه ، وسالت فيها دماء كثيرة ، وصرع فى خضم وقائعها ابرياء عدة ، وتغيرت اوضاع ، وتحكمت اهواء ، ونشطت مطامح ، وعمات مطامع عملها ، بلا ضوابط ، حتـــى كاد المغرب يفقد بسببها وحدته السياسية والترابية . وتمزقه الاهواء وحب

السلطان والتحكم من الداخل والخارج شر ممزق ....

ويبدو أن ذلك كله استغل أو تم بتدبير من ملك غرناطة « محمد الغنى بالله » وبايحاء منه وتخطيط ، وذلك لاستغلال وضع تام فى البلاد آنذاك ، ونتج عن صراعات حادة بين عدد من المتغلبين على عرش بنى مرين والمستبدين به بفاس من وزراء وحجاب قادة .

وكان لبنى مرين يد بيضاء ، ونعمة غراء على « الغنى بالله » ، وذلك يوم اقصى عن عرشه فى غرناطة ، فقد وجد لديهم البر والمعونة طيلة ايام محنته (760 — 763 هـ) حتى عاد الى عرشه فى ظروف معروفة أخبارها ، ومنذ عودته الى عرش غرناطة حدث فى الافق السياسى بالمغرب صراعات حول الحكم بين المتغلبين على عرش بنى مرين فى فاس ، وبينهم من جهة وبين حكام تلمسان من بنى عبد الواد من جهة أخرى ، ولم يقف الغنى بالله من هذه الصراعات موقف المحايد ولا المهادن المصلح ، بل تورط فى غمارها وسعى الى استغلالهــا ....

وفى اثناء ذلك كله ، حدث ما زاده حقدا ونصبا فى تدخلاته ، وذلك أن وزيره ، ومدبر دولته الاولى والثانية ، لسان الدين ابن الخطيب ، فــر من غرناطة ، تاركا المنصب والجاه ، والتجأ الى فاس ، واحتمى بملوك بنى مرين والقائمين بدولتهم من حجاب ووزراء ، ولم يشأ هؤلاء أن يخفــروا ذمتهم ، وان يسلموا هذا الوزير الملتجىء ، الى الغنى بالله ، رغم الحاحه وتهديده ، لينتقم منه ، ويجرعه كأس المنون ، وهو المفكــر ، والمؤرخ ، والسياسى اللامع الذائع الصيت ، ومن اجل ذلك ، أصبح الغنى بالله ، فى المقيم المقعد ، يريد الفتك بوزيره السابق ، والانتقام ممن آووه ، واسدلوا عليه رداء الحصانة والحماية .

وفى سبيل الوصول الى هدفيه : الفتك بابن الخطيب ، والانتقام من حماته ، عمل الغنى بكل ما يملك من وسائل مادية وادبية ، لاسقاط النظام المرينى المركزى فى فاس ، وهو يعلم دقيق العلم ما كان يعانيه هذا النظام من ازمات وتخبطات ، وسلك لذلك مسلكا مكشوفا . لفت انظار المؤرخين ، فسجلوا مراحله ، واحصوا ما تــم فيها ومعها من مآس ونكبــات ، واستعمل « الغنى بالله » لذلك اميرا من أمراء بنى مرين ، الذين كانوا يعيشون عنده فى غرناطة ، وهو الامير عبد الرحمن بن على بن عمر بن السلطان ابى سعيد الاكبر ، وكان عبد الرحمن هذا ، يشغل فى غرناطة ، منصبا عسكريا عاليا ، وهو منصب « شيخ الغزاة » ، وكان حاقدا علــى

الوضع القائم فى المغرب ، بسبب انه كان يشعر بابعاده عن الحكم والنفوذ فى المنطقة التى كان يحكمها جده فى سجلماسة ، ويستبد بها ، واورث ذلك ابناءه من بعــده .

وابن الخطيب اشار لعبد الرحمن هذا فى كتابه الاحاطة ، اثنــاء الترجمة التى وقفها على حياة « الغنى بالله » (الاحاطة : 38/2 — 39) واعطى معلومات مفيدة عن شخصه ومطامحة السياسية التى استغلها الغنى بالله بعد ما انجز ابن الخطيب كتابه . وجهز الغنى بالله شيخ الغزاة فى مملكته — عبد الرحمن — وامده بما استطاع أن يمده به من رجال وعتاد وسفن ، تنقل الجيع الى شواطىء المغرب ، وتقذف بهم هناك ، ليوقدوا نار التمرد والثورة .

وفعلا نزلوا بساحل الريف فى شمال المغرب ببلاد قبيلة بطيــوة (. ابن خلدون . ط . بيروت : 702/7) .

وفى الوقت نفسه اعلن الغنى بالله على اقامة أمر مرينى آخر كان محتجزا فى طنجة ، وهو ابو العباس احمد بن السلطان ابى سالــم المرينى .... واغتنم الفرصة فاستولى على ثغر جبل طارق ، وشحنــه بالجنود .... وكان ثغرا مرينيا يستغله بنو مرين لتدريب المجاهدين الذين يرغبون فى حراسة الثغور الاندلسية والدفاع عنها عند الحاجة .

وبذلك اصبحت البلاد المغربية ، غارقة فى فتن داخلية وحروب مريرة تفتك بأبنائها ، وتعرض مدنها وقراها الى الخراب والدمار ....

واختلف الاميران « العميلان الثائران » ، ثم اتفقا على خطة للهجوم على فاس ، وكان اللقاء على مقربة من وادى النجاة فى احواز فاس ، وتم حصار المدينة البيضاء ، ثم الدخول اليها ، وتنحية كل من كان يقــف دون تنفيذ رغبات الغنى بالله ، واسفرت العملية المدبرة عن :

1 — مبايعة ابى العباس احمد بن ابى سالم ملكا علىّ عرش بنــى مرين فى فاس .... وتسليم الوزير لسان الدين ابن الخطيب الى أعوان الغنى بالله وزبانيته ، ليفتكوا به تلك الفتكة الشنيعة التى لامسوغ لها ، والتى تعد وصمة سوداء فى تاريخ دولة بنى الاحمــر ...

2 — منح الامير عبد الرحمن حكم مراكش ، وقد اشتط فى مطلبه هذا ، وفرضه بعد الاتفاق المبدئى أن يمنح حكم سجلماســة ودرعة ، لكــن عبد الرحمن تصلب فى موقفه ، وحقق هدفه بقوة (التعريف بابن خلدون

ورحلته : 219 — 221) .

واستطاع عبد الرحمن ان يستولى على مراكش ، ويحكمها ويفرض وجوده ، لا على اقليم مراكش فقط ، لكن على اقاليم اخرى من المغرب ، بحيث اننا نلمس من نصوص كلام المؤرخين ، حديثا عن « تقسيم واقعى » للنفوذ فى الاقاليم المغربية بين فاس ومراكش ، وادى ذلك الى صراعات وحروب وفتن دامت ما يقرب من تسع سنوات .

ويحدثنا ابن خلدون — وهو شاهد عيان — ان الغنى بالله بعث خاصته الوزير ابا القاسم ابن الحكيم الرندى « ليعقد الصلح بينهما » . . . . (ابن خلدون : 719/7) . لكن هذا الصلح لم يطل عمره ، وما لبث الامر ان تفاقم ، وتجددت الحرب ، ووقع حصار مراكش الذى استمر تسعة اشهر ، وانتهى بمصرع عبد الرحمن داخل قصبتها سنة 784 هـ .

وهذا الحصار الذى تحدث عنه المؤرخون ، هو الحصار الذى يشير اليه مؤلف كتاب « الحلل » فى المقدمة والخاتمة على انه الحافز الذى دفعه الى كتابه ، بأمر من الغنى بالله ملك غرناطة ، الذى كان غارقا فى أوحال المؤامرة . . . .

لقد كان الغنى متشبثا بخطة تمزيق وحدة المغرب ، وظل يشجع القوى المتصارعة ماديا ومعنويا ، الى ان تبددت احلامه واخفقت خططه ، وفى باب التشجيع أوحى لاحد رجالاته فى غرناطة ان يؤلف كتابا عن مراكش ، وكان هذا الكتاب هو الحلل الموشية .

لقد صنف كتاب الحلل اثناء الحصار ، وتداولته الايدى فى المغرب والاندلس ، واثناء هذا اخفقت المؤامرة ، وعادت الوحدة الى المغرب ، فتبدلت موازين القوى ، وتبع ذلك تبدل فى السياسة فى كل من غرناطة وفاس ، الامر الذى لم يعد بالامكان متابعة استثمار الفكرة التى اوحت بتصنيف الكتاب ، مما دعا مؤلفه الى التنصل منه ، فأخفى اسمه ، وساعدته ظروف عدة فرضها الواقع الجديد على ذلك . ويبدو انه حين صنف هذا الكتاب ، كان تحت تصرف مؤلفه محتويات خزائن غرناطة ، ومن هذه المحتويات المحجوبة عنا الآن نهل المؤلف ، خاصة من كتاب ابن الصيرفى عن تاريخ المرابطين ، كما نهل من سواه ، وصحيح ان المؤامرة اخفقت لكن الكتاب بما حواه من معلومات ثمينة ووثائق فريدة ، جعل الناس يتمسكون به ويكثرون من تداوله والنقل عنه ، والعمل منذ بداية هذا القرن على نشره .

وينبغى هنا قبل الحديث عن النسخ المعتمدة فى التحقيق ، أن نشيـــر الى ما تحدث به بعض الباحثين عمن ظنوه مؤلف هذا الكتاب ، فهناك المؤرخ المغربى ـــ ابو الربيع سليمان الحوات ، الذى عاش فى القرن الثالث عشر للهجرة : ذكر فى مخطوطة كتابه ـــ البدور الضاوية ـــ ان مؤلـــف الحلل الموشية هو ابو العلاء بن السماك ؛ وصاحب هذه الشخصية لا نكاد نجد له ترجمة فى كتب التاريخ المتوفرة بين ايدينا الآن ، اللهم الا ان لسان الدين ابن الخطيب ذكره فى كتابه الكتيبه الكامنة (ص : 198 ط ـــ بيروت) . وكتابه اوصاف الناس (ص : 67 ـــ ط . الرباط) ، وجاء هذا الذكر عبارة عن اشارات عابرة لا تسمن ولا تغنى الباحث ، وبالتالى لا تمكنه مـــن التعرف الى شىء من سماته .

وحيث اننا لا نعرف مستند المؤرخ الحوات فيما ذهب اليه ، لا يمكننا المضى فى البحث فى هذه القضية ، خاصة بعدما بينا الظروف التى أملت تصنيف الكتاب .

لقد طبع كتاب الحلل للمرة الاولى فى تونس سنة / 1329 هـ / [illegible] ناشره الى لسان الدين ابن الخطيب ، وجاءت هذه الطبعة فى / 144 ص / من الحجم المتوسط ، ولقد الم بنص الكتاب أثناء طباعته ما لايحصى من الاخطاء ، كما اصاب نصه السقط والبتر فى اماكن عدة ، وطبعا لم يلحق باية فهارس ، ولم يضبط نصه ، ولم يلحق بشىء من الحواشى والشروح الضروريـــة .

ثم طبع هذا الكتاب للمرة الثانية فى الرباط سنة 1936 بعنايـــة س . علوش ، وجاءت هذه الطبعة فى / 178 ص / ، ولقد تم اخراج هذه الطبعة بشكل اجود من شكل الطبعة الاولى ، كما الحق النص ببعض الفهارس ، واقتصرت حواشيه على ذكر الفوارق بين النسخ الخطيـــة المعتمدة فى عمل التحقيق ، هذا وخرجت هذه الطبعة عن معهد الدروس العليا المغربيـــة .

لكن رغم اناقة مظهر هذه الطبعة فانها حوت ذات الاخطاء التـــى حوتها الطبعة الاولى حتى ليخيل للمرء ان صاحبها سلخ الطبعة الاولـــى واخرجها بمظهر جديد ، لكن دون اى تغيير فى المضمون تصويبا وتقويما .

ومنذ سنين عديدة نفدت نسخ الطبعة الثانية من كتاب الحلل ، وكانت نسخ الطبعة الاولى نافدة قبل ذلك بأعوام ، وباتت الحاجـــة ملحة لهذا الكتاب ، وكان اشد ما يخشـــاه الانسان ان يبادر « احد

الوراقين » فيخرج الكتاب مصورا عن احدى الطبعين . . . .

والباحث يحتاج الآن الى نسخة من هذا الكتاب محققة بشكل علمي متقن ، لهذا بادرنا نحو اداء هذا الواجب .

ولقد اعتمدنا في تحقيقنا لهذا الكتاب على ثلاث نسخ خطية ، واحدة خاصة ، واثنتان في الخزانة العامة في الرباط ، مع الطبعتين الاولى والثانية .

توجد اقدم النسخ الخطية في الخزانة العامة ، وهي محفوظة تحت رقم / 2300 ك / ، وتحوى هذه النسخة / 67 / ورقة ، كل واحدة مسطرتها : 23,25 × 19 سم ، وحوت كل صفحة ما يقارب الـ / 17 / سطرا ، وجاء في كل سطر ما بين / 8 الى 10 / كلمات ، ولقد رمزنا لهذه النسخة اثناء التحقيق بحرف (ك) .

وقد جاء في آخرها ما نصه : « كتبتها من نسخة قديمة ، قل أن يوجد بها كلمة مستقيمة ، فمن رأى بها نقصا كمله ، أو تصحيفا اصلحه ، ولله الكمال على كل حال ، وكان الفراغ من هذا الكتاب يوم الاثنين ، بل يوم الجمعة تاسع ذى القعدة الحرام عام تسعة وعشرين ومائة والف ، عرفنا الله خيره ، ووقانا شره وضيره ، آمين يارب العالمين » .

اما النسخة الثانية فهي ايضا محفوظة في الخزانة العامة تحت رقم / 1428 د / وهي واقعة ضمن مجموع ، احتلت منه من / ص 191 الى 209 / ومسطرة كل صفحة منها : / 22 × 17 سم / ، وحوت الصفحة الواحدة / 22 / سطرا ، وجاء في كل سطر ما بين / 7 الى 10 / كلمات ، وكتب في آخر هذه النسخة ما نصه : « وكان الفراغ من نسخه بعد عصر يوم الاثنين السابع من شهر الله ربيع الاول سنة خمس وتسعين ومائتين والف » وقد رمزنا لهذه النسخة اثناء التحقيق بحرف (د) .

وحوت النسخة الثالثة التي هي في خزانة احد الاصدقاء في فاس / 94 / ورقة ، مسطرة كل صفحة منها : 23 × 17 سم ، وحوت الصفحة / 21 / سطرا ، في كل سطر ما بين / 5 الى 7 كلمات / ، وجاء في نهاية هذه النسخة : « انتهت كتابة هذه النسخة بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه الجميل في رمضان عام 1298 — اللهم اغفر للمؤلف والكاتب والناظر والسامع ، ولمن كان سببا في كتابتها ، آمين ، وصلى الله على

سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما ، والحمد لله رب العالمين ، على يد محمد بن الحاج الفاسى الرجراجى ، وفقه الله آمين » ، ولقد رمزنا لهذه النسخة بالحرف (هـ) .

لقد كتبت النسخ الثلاث بخط مغربى كثير الاخطاء ، واصاب كل نسخة منها بتر وسقط كثير ، وانعدم التوافق بين نصوصها فى كثير من الاحيان ، ومن ثم كان من المتعذر اعتماد واحدة من النسخ الخطية او المطبوعة اصلا للتحقيق وعليه جاء التحقيق معتمدا على الاصول الخمسة ، ومن هذه الاصول جهدنا فى سبيل اخراج نص ، نعتقد أنه صحيح وسليم فى نفس الوقت ، وساعدنا على نجاح مهمتنا هذه اعتمادنا لعديد من المصادر والابحاث .

هذا ولقد سعينا اثناء التحقيق الى التقليل ما أمكن من الحواشى ، فلم نذكر ما جاء من فوارق بين الاصول الا ما كان ضروريا ومعبرا فى نفس الوقت عن طبيعة هذه الفوارق ، كما جعلنا الشروح قصيرة ، فخير الكلام ما اغنى قليله عن كثيره .

ان الامل كبير فى أن نكون قد وفقنا فى عملنا هذا ، الذى يمكن اعتباره من بعض الجوانب احدى ثمرات التعاون الثقافى بين جامعات الوطن العربى ، فهو ان انجز اصلا فى مدينة فاس ، دمشق المغرب ، فان احد محققيه موفد من جامعة دمشق الشام للتدريس فى جامعة محمد بن عبد الله التى يعمل فيها المحقق الآخر استاذا محاضرا .

والحمد لله والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم

فاس فى : فاتح جمادى الاولى 1398 / 10 — 4 — 1978

سهيل زكار　　　　عبد القادر زمامه

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله

كتـــــاب

الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية

الحمد لله الذى أجرى الامور على مشيئته وتقديره ، الفاتح — لمن استغنى به وتوكل عليه — أبواب تيسيره ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد عبده ونبيه ورسوله الكريم من عباده ، وسيد معادن الخلق ، المبعوث لايضاح الحق وتقريره ، والرضى عن آله وأصحابه الذين آووه ونصروه ، وقاموا بتعزيره وتوقيره ، وجاهدوا بأنفسهم النفيسة في حسم سبب الشرك وتتبيره ، والدعاء لهذا المقام العلى المحمدى النصرى السلطانى المجاهدى ، الذى سعد الاسلام بيمن نقيبته ، وصالح تدبيره ، بضلة النصر الذى يصحبه فى حالى : مقامه ومسيره .

أما بعد ، فانه لما حدث لهذا العهد بحضرة مراكش ما وقع من الحصار والتناوش ، والهياج (1) والتهارش ، وتحدث الناس بالايام وحوادثها ، وأشفقوا مما يتوقع من خطوبها وكوارثها ، اذ الملة — والحمد لله — واحدة . والنفوس لشفقة الايمان غير جاحدة ، فالمسلمون حيثما كانوا اخوة ، لا سيما من بهذه الجزيرة، وبتلك العدوة ، فالقلوب بتوفيق الله تعالى غير متنافرة ، والعزائم بحوله تعالى وقوته متعاضدة ومتضافرة (2) ، والوجوه مصروفة

1 — فى د : الهيج ، وفى ك : المحن .
2 — فى ك : فقلوبهم بتوفيق الله غير متنافرة ، وعزائمهم بعون الله متعاضدة ومتظافرة .

الى جهاد الامم الكافرة ، والله تعالى يطيل الاسلام ، ببقاء مولانا الامام ، الخليفة الاعظم (3) ، والملجأ الاعصم حامل الكل (4) وكافل الكل ، ويوزع الجميع شكر نعمائه ، وينصره فى أرضه ، بملائكة سمائه ، بفضله وكرمه .

فجمعت فى هذا الموضع (5) نبذا من عيون أخبارها ، وتعداد الكرات فى حصارها ، الى غير ذلك مما كان فيها من الاحداث الكبار ، والوقائع ذات الاعتبار ، من لدن نزول سكانها (6)، واختطاط بقعتها ، ومكانها ، وابتداء تسويرها وبنيانها ، وذكر الباعث لاتخاذها مقرا لسلطانها .

واقتصرت فى ذلك كله على القليل خوفا من الاكثار ، وانتقيته (7) من عدة من الاسفار ، مجموعة من دواوين العلماء الكبار ، ووضعت كل نازلة فى زمانها ، مندرجة فى اسم سلطانها ، وسقت خبر ملوكها أحسن مساق ، على انتظام من القول واتساق ، واقتصرت فى الدولة السنية اليعقوبية المرينية ، على التواريخ ، دون الاخبار ، جنوحا للايجاز ، وميلا للاختصار ، اذ لا يفى هذا المختصر كل الايفاء ، بأخبار جملة الخلفاء ، على أننى لم أخله من قطع الاشعار ، ونكت الرسائل القصار ، وتضمين مسائل نادرة يتعجب من وقوعها ، وموعظة يعتبر بمسموعها ،

---

3 — كذا ، مع ان المشهور هو ان بنى الاحمر كانوا يتخذون لقب « أمير المسلمين » .
4 — اى الهموم .
5 — فى ك : الموضوع .
6 — فى ك : : سلطانها .
7 — فى هـ : واصطفيته .

وأوصاف (8) كائنة تصرح بخبر تابعها ومتبوعها ، فيتصـــور الانسان الحروب ومكائدها ، ومن لم يشاهدها بنفسه فكأنــه يشاهدها ، فالكيس اذا نظر بفطنته فى أخبار الناس ، واطلع منها على وصف الحروب والمراس ، قام له ذلك مقام المشاهدة والعيان ، وتمثلت له الاحداث مصورة بأفصـح البيان ، فيزيد بمعرفة ذلك حنكة وتجريبا ، ويكتسب تخريجا وتدريبا ، وتقل مبالاته بالامور المهولة ، ويقف على تصريف الايام من الصعوبة الى السهولة ، ولولا التاريخ لضاعت مساعى أهل السياســة الفاضلة ، وجهلت الدول ، ومات ذكر الاول ، وفى ضمن ذلــك معتبر وموعظة ومزدجر ، يفيد قارئه حكمة والهاما ، ويقرطس من الآراء المسددة سهاما .

وهذا حين الابتداء ، بما أشرت اليه من الانباء ، ولما بلغ الى هذا المقدار جرمه ، وجب أن يوضع اسمه ، فسميتــه **« كتــاب الحلــل الموشيــة فى ذكــر الاخبــار المراكشيــة »** والى الله تعالى أبتهل أن يمنحنى الرشد ، ويبلغنى الأمــل والقصد ، انه مجيب (9) السؤال ، كفيل بصلاح الاحوال ، فسبحانه لا اله الا هو ، الكبير المتعال ، ذو الجــلال .

---

8 ـــ فى ك : وموعظة يعبر لموعظها ، ووصف كائنه تشرح . . . .
9 ـــ فى د : يجيب .

ذكر السبب فى اختطاط مدينة مراكش وبنيانها
وارتياد موضعها ومكانها حرسها الله بمنـــه

ذكر السبب فى اختطاط مدينة مراكش وبنيانها وارتيـــاد موضعها ومكانها حرسها الله بمنه

اعلم رحمك الله ، أن سبب ذلك ، على ما نقله جماعة من علماء التاريخ ، أن الامير أبابكر بن عمر بن ابراهيم بن تورفيت اللمتونى ، لما خرج من الصحراء باللمتونيين ، واحتلوا بأغمات وريكة (10) ، وكثر الخلق بها ، وضيقوا على أهلها ، وكانوا على حال صعبة ، شكا أشياخ وريكة وهيلانة ، الى الامير أبى بكر بن عمر ، ما يلحقهم فى ذلك من العناء ، والمشقة ، وأنهوه اليه المرة بعد المرة ، الى أن قال لهم : عينوا لنا موضعا نبنى فيـــه مدينة ان شاء الله .

فاجتمعوا على أن يكون بناؤها بين بلاد هيلانة ، وبين بلاد هزميرة ، فعرفوا بذلك الأمير أبا بكر بن عمر ، وقالوا له : قد نظرنا لك أيها الامير ، موضعا صحراء ، رحب الساحة ، واسع الفناء ، يليق بمقصدك ، وقالوا له : نفيس (11) جنانها ، وبلاد

---

10 ـــ قال الحميرى فى الروض المعطار : اغمات ، بأرض المغرب .... بينها وبين (وادى نفيس) مرحلة .... واغمات مدينتان ، احداهما تسمى اغمات وريكة ، والاخرى اغمات هيلانة ، وبينهما نحو ثمانية اميال ، وباغمات وريكة تسكن الاعيان ، وبها ينزل التجار » هذا ومعروف أن وريكة وهيلانة ، او ايلان ، من قبائل البربر .

11 ـــ نفيس اسم يطلق على واد ومدينة من احواز اغمات ومراكش اندثرت .

دكالة فدانها ، وزمام جبل درن (12) بيد أميرها .

فعند ذلك ركب الامير أبوبكر بن عمر ومعه قومه الملثمون (13) ، وأشياخ المصامدة ، ووجوه الناس ، وصاروا معه الى فحص مراكش ، وهو خلاء ، لا أنيس به ، الا الغزلان والنعام ، ولا ينبت الا السدر والحنظل ، وكان ذلك سنة اثنتين وستين وأربعمائة : فانتقلوا الى تلك الرحبة ، فوجدوا فى فحصها من المسرح الخصيب للجمال ، والدواب ، ماغبطهم بها ، وشرع الناس فى بناء الدور من غير تسوير عليها ، فبينما الأمير أبوبكر بن عمر ، قد نزل بها ، وأخذ فى بناء الديار ، اذ وفد عليه رسول من قبيلة لمتونة بالصحراء ، يعلمونه أن جدالة أغارت عليهم ، وكانت بينهم فتنة دائمة ، فاستخلف ابن عمه (14) يوسف بن تاشفين على المغرب ، ودخل الى الصحراء لاصراخهم ، ولاخذ ثأرهم من عدوهم .

---

12 ــ هو ما يعرف اليوم بسلسة جبال الاطلس الكبير .

13 ــ فى ك : ومعه جماعة من الملثمين .

14 ــ فى هـ : ابن عمته .

ذكر السبب فى خروج الملثمين ونبذ من أخبار أوائلهـم المتقدمـــين

هؤلاء الملثمون ينتمون الى لمتونة ، وهم أولاد ، لمــت ، وجدالة ، ولمط ، ومسطوف ، ينتسبون الى صنهاجة .

فلمت جد لمتونة ، وجدال جد جدالة ، ولمط جد لمطــة ، ومسطوف جد مسوفة (15) ، وهم ظواعن فى الصحراء ، رحالة لا يطمئن بهم منزل ، وليس لهم مدينة يأوون اليها ، ومراحلهم فى الصحراء مسيرة شهرين فى شهرين ، ما بين بلاد السودان وبلاد الاسلام ، وهم على دين الاسلام ، واتباع السنــــة ، يجاهدون غيرهم من طوائف السودان .

قال أبو عبد الله محمد بن يحيى الزهرى (16) : كان أهل بلاد السودان الذين حاضرتهم مدينة غانة متشرعين فيما سلف من الدهر بدين النصرانية الى سنة تسع وستـــــين وأربعمائة ، فأسلم أهلها ، وحسن اسلامهـــم ، وذلك عند خروج الامير أبى (زكريـــا) يحيى أخى الامير أبى بكر بن عمر اللمتونى ، وليس بين لمتونـــة وبـــين البربر نســب الا الرحم ،

---

15 ــ سقط هذا الكلام من اوله حتى هنا من المطبوعتين ؛ وجبر مــن الاصول الخطية ؛ انظر ايضا ص : 25 من كتاب تاريخ السودان لعبد الرحمن السعدى ، ط . باريس 1898 م ، حيث نقل نفس العبارة عن صاحب الحلل الموشية .

16 ــ الزهرى هو محمد بن ابى بكر ، وليس ابن يحيى ، كما ورد فى النص ، ويدعى كتابه « الجعرافية » بالعين المهملة ، وقد نشــر فى مجلة المعهد الفرنسى بدمشق ، العدد ــ 21 ــ سنة 1978 ، انظر ص : 182 وما يليها .

وصنهاجة يرغعون أنسابهم الى حمير ، وأنهم خرجوا من اليمن ، وارتحلوا الى الصحراء ، وهى موطنهم بالمغرب (17) ، وسبب ذلك أن أحد الملوك من التبابعة لم يكن فيمن تقدمه من ملوك قومه مثله ، ولم يبلغ أحد منهم فى فضله ، وعزة ملكه ، وبعد غزوه (18)، ونكاية عدوه ، وقهره العرب والعجم مبلغه ، فأنسى جميع الامم ممن كان قبله ، وكان قد أخبره بعض الاحبار بحوادث الأيام ، وبالكتب المنزلة من الله على رسله ، عليهم الصلاة والسلام ، وأن الله يبعث رسولا هو خاتم الانبياء ، ويرسله الى جميع الامم ، فأمن به ، وصدق بما يأتى به ، وقال فيه :

شهدت على أحمد أنه　　　رسول الله ...

ونظمها فى أبيات من الشعر :

شهدت على أحمد أنه　　　رسول من الله بارى النسم
فلو مد عمرى الى دهره　　　لكنت وزيرا له وابن عم

فى أبيات كثيرة ، قصتها مشهورة ، ثم سار الى اليمن ، ودعا أهل مملكته الى ما آمن به ، فلم يجبه الى ذلك الا طائفة من قومه حمير .

ولما هلك غلب أهل الكفر على أهل الايمان ، فكان كل من آمن به ، وتبع ملته بين قتيل وطريد ، ومطلوب وشريد ، فعند ذلك تلثموا ، كفعل نسائهم فى ذلك الزمان ، وفروا بأنفسهم ، وتفرقوا

17 — فى د : الصحراء وطنهم فى المغرب .
18 — فى ك : غوره .

أيادى سبأ (19) ، فى الاقطار ، فكان هذا سبب خروج سلف الملثمين عن اليمن ، كما ذكر ، وكانوا أول من تلثم ، ثم انتقلوا من قطر الى قطر ، ومن مكان الى مكان ، حتى صاروا بالمغرب الاقصى ، ببلاد البربر ، فاحتلوا به ، واستوطنوه ، وصار اللثام زيهم الذى أكرمهم الله به ، ونجاهم لاجله من عدوهم ، فاستحسنوه ، ولازموه ، وصار زيا لهم ولاعقابهم لا يفارقونه الى هذا العهد .

وانما تبربرت ألسنتهم لمجاورتهم البربر ، وكونهم معهم ، ولمصاهرتهم اياهم .

والموجب لخروجهم من الصحراء الى وطن المغرب ، أن أحد بنى جدالة ، ويعرف بيحيى بن ابراهيم كان قد توجه لاداء فريضة الحج ، واجتاز فى ايابه على مدينة القيروان ، وذلك سنة أربعين وأربعمائة ، فحضر بها مجلس الفقيه المدرس أبى عمران الفاسى (20) ، فسأله عن قبيلته ووطنه ، فذكر له أنه من الصحراء ، من قبيلة جدالة احدى قبائل صنهاجة ، فقال له الفقيه : ما مذهبكم ؟ فقال له : ما لنا علم من العلوم ، ولا مذهب من المذاهب لاننا فى الصحراء منقطعون لا يصل الينا الا بعض تجار جهال ، حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء ، لا علم عندهم ، وفينا أقوام

---

19 — مثل قالته العرب . ويتبه على اخبار سيل العرم وخراب سد مارب ، فتفرق اهل مملكة سبأ بسببه .

20 — كذا فى الاصل ؛ ونبه ما فيه ، ذلك ان وفاة الفاسى كانت سنة ثلاثين واربعمائة ؛ انظر مقال الاستاذ عبد القادر زمامه فى مجلة البينة — العدد الثالث — 1962 .

يحرصون على تعلم القرآن ، وطلب العلم ، ويرغبون فى التفقه فى الدين ، لو وجدوا الى ذلك سبيلا ، فعسى ياسيدنا أن تنظر لنا من طلبتك من يتوجه معنا الى بلادنا ليعلمنا ديننا .

فقال له الفقيه : سأنظر لك فى ذلك ان شاء الله تعالى ، فعرض الفقيه الامر على الطلبة ، فلم يوافقه أحد ، لبعد الشقة ، والانقطاع فى الصحراء ، فدله الفقيه على رجل من فقهاء المغرب الاقصى ، مستوطن بالسوس ، يدعى وكاك بن زلو ، مشهورا بالخير والعبادة ، كانت بينهما قراءة (21) ومعرفة ، فخاطبه فى القضية ، وأكد عليه فى المشاركة فيها ، فلما وصل يحيى بن ابراهيم المذكور ، اجتمع به ، ودفع اليه كتابه ، فرحب به ، وأكرمه ، واختار له رجلا يعرف بعبد الله بن ياسين الجرونى ، من طلبة الشيخ المذكور ، وأرسله معه ، ودخل الى الصحراء الى بلاد جدالة ، وهو مع يحيى بن ابراهيم .

وكان عبد الله دخل الاندلس فى دولة ملوك الطوائف ، وأقام بها سبع سنين ، يلازم القراءة ، فحصل علما كثيرا ، وعاد الى المغرب الاقصى .

فسار معه الى قبيلة جدالة ففرحوا ، واجتمع عليه منهم نحو سبعين شيخا من فقهائهم ، وأهل الخير منهم ، ليعلمهم ويفقههم فى دينهم ، فانقادوا اليه انقيادا عظيما ، وأولوه (22)

---

21 — فى ك : قرابة ، ومن المعروف ان وجاج قد قرا على الفاسى ، فقد جاء فى ترجمته فى التشوف : 66 « من أهل السوس الاقصى ، رحل الى القيروان ، فأخذ عن ابى عمران الفاسى ، ثم عاد الى السوس، فبنى دارا سماها بدار المرابطين لطلبة العلم ، وقراء القرآن » .

22 — فى ك + د : ووالوه .

برا وتكريما ، ولازموه مدة طويلة .

واجتمع عليه منهم عدد وافر ، الى أن أمر عبد الله بن ياسين قبائل جدالة بغزو لمتونة ، فحاربهم حتى دخلوا فى دعوة عبد الله بن ياسين ، وغزوا معه سائر قبائل الصحراء ، وحاربوهم، وقوى أمر جدالة ، وزاد فى ظهورهم ، وهم ممتثلون لامره ، منقادون لحكمه ، وتوجه الى لمتونة ، فانقادوا له ، وأطاعوه ، وكان أشد (الناس) انقيادا اليه أمير لمتونة أبوزكريا يحيى بن عمر .

وكان الأمير أبوزكريا اذا تقدم بجيشه ، قدم أمامه الشيخ أبا محمد عبد الله بن يا سين ، والشيخ كان فى الحقيقة الأمير ، وهو الذى يأمر وينهى ، وكان يقول لهم : انما أنا معلم دينكم ، وكان يلى لمتونة جبل فيه قبائل من البربر على غير دين الاسلام ، فدعاهم الشيخ عبد الله بن ياسين الى الدين ، فامتنعوا عليه ، فأشار على الأمير أبى زكريا بن عمر بغزوهم ، فغزاهم بلمتونة ، وكانوا حينئذ أزيد من ألف فارس ، فهزموهم ، وسبوهم ، وقسموا أموالهم ، وخمسوا سبيهم ، فيقال انه كان أول خمس قسمه اللمتونيون فى صحرائهم (23) ، وفقد منهم فى هذه المعركة خلق كثير ، وعند ذلك سماهم الشيخ أبو محمد عبد الله بن ياسين بالمرابطين (24) ، لما رأى من شدة صبرهم ، وحسن بلائهم على المشركين .

قال أبو عبيد عبد الله البكرى : وكان للمتونة فى قتالهم شدة وبأس

---

23 ــ فى ك : الصحراء .

24 ــ كذا ، وهناك خلاف حول زمان استخدام هذه التسمية ومكانها .

ليس لغيرهم ، وبذلك ملكوا الارض ، وكان قتالهم على النجب (25) أكثر من الخيل ، وكان معظم قتالهم مترجلين ، يقفون على أقدامهم صفا بعد صف ، يكون بأيدي الصف الاول منهم القنا الطوال ، وكانوا يختارون الموت على الانهزام ، ولا يحفظ لهم فرار من زحف ، ولما رأى الشيخ أبو محمد عبد الله بن ياسين استقامة لمتونة ، واجتهادهم ، أراد أن يظهرهم ويملكهم بلاد المغرب ، فقال لهم : انكم صبرتم ، ونصرتم دين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد فتحتم ما كان أمامكم ، وستفتحون — ان شاء الله — ما وراءكم ، فأمرهم بالخروج من الصحراء الى سجلماسة (26) ، ودرعة ، وأهلها يومئذ تحت طاعة أمراء مغراوة من زناته ، وأميرهم يومئذ مسعود بن وانودين بن خزرون ابن فلفول الهزرجي ، وذلك بعدما خاطبوهم ، فلم يجيبوهم على ما طلبوا منهم ، فغزاهم في جيش كثيف حتى غلبوا عليهم ، ودخلوا سجلماسة وملكوها ، وكانت بها أناس كثيرة ، وكانت بينهم وبين مغراوة حروب كثيرة .

وبعد ذلك توجه الامير أبو زكريا يحيى بن عمر مع امامه

---

25 — في د + ك + هـ : البخت ، والذي ورد في كتاب البكري المطبوع ص : 166 ، موافق لما اثبتنا ، ومن المفيد الاشارة اليه ان هناك خلافا بين نص البكري ، وما اورده المؤلف هنا .

26 — كانت سجلماسة من اشهر مدن المغرب المسامته للصحراء ، وقد شغلت حتى فترة ليست بعيدة ادوارا هامة ، سياسية وتجارية .... وقد اندثرت الآن ، وغطتها الرمال ، وموقعها على مقربة من قصر السوق في اقليم تافيلالت ، وتعرف بقعتها باسم « العامرة » وذلك على قاعدة المغاربة الحضارية ، حيث نجدهم يدعون الرصاص بالخفيف ، والفحم بالبياض ، والاعمى بالبصير .... ومن المفيد أن نذكر ان التنقيبات الاثرية جارية فيها الآن .

الشيخ أبى محمد عبد الله بن ياسين بجيش كثيف من امتونة ، ومسوفة ، ولمطة ، وهزرجة ، وسار بهم الى بلاد درعة ، فتلاقوا هنالك مع جيش جدالة ، فقتل الامير أبو زكريا بن عمر ، وقتل معه بشر كثير .

ولما كان بعد ذلك قدم الشيخ أبو محمد عبد الله بن ياسين أخاه الأمير أبابكر بن عمر ، فبايعته لمتونة وسائر الملثمين ، وأهل سجلماسة، ودرعة (27)، وانصرف الى بلاد المصامدة، بقصد أغمات ، وطاعت له : وريكة ، وهيلانة ، وهزميرة . وكان وصوله لأغمات سنة خمسين وأربعمائة ، فتلقته أشياخ المصامدة ، وأذعنوا له بالطاعة ، واحتل مدينة أغمات ، واستوطنها مع امامه الشيخ أبى محمد عبد الله بن ياسين ، ثم انصرف الشيخ أبو محمد عبد الله بن ياسين الى بلاد تامسنا ليسكنهم ، ويحضهم على الطاعة ، فقتلته برغواطة (28) .

ولما كان فى سنة ستين وأربعمائة استقامت الامارة للامير أبى بكر بن عمر ، وطاعت له البلاد ، ووجه عماله اليها واستوطن مدينة أغمات ، وتوالت عليه الوفود والجيوش من الصحراء ، فكثر الخلق ، وعظم الازدحام بأغمات ، فشكوا اليه ما يجدونه من ذلك ، وأشاروا عليه بالانتقال الى فحص مراكش ، فانتقل اليها ، حسبما تقدم قبل هذا ، وفى أثناء مقامه بلغه ما كان من ظهور جدالة على لمتونة ، فشرع فى العودة الى الصحراء ، واستخلف على المغرب ابن عمه يوسف بن تاشفين .

---

27 — منطقة معروفة بالمملكة المغربية وراء الاطلس الكبير .

28 — من اجل برغواطة يمكن العودة الى ما كتبه البكرى فى كتابه المسالك والممالك ص 134 .

ذكر يوسف بن تاشفين ونسبه رحمه الله

هو يوسف بن تاشفين بن ابراهيم بن تورقيت بن ورتاقطن بن منصور بن مصالة بن مانية بن ونمالى ، الصنهاجى الحميرى ، وفى ابراهيم يجتمع مع ابنى عمه الاميرين اللذين كانا قبله : أبى زكريا ، وأبى بكر ابنى عمر بن ابراهيم بن تورقيت .

وكنيته : أبو يعقوب .

بنوه : (أبوبكر) سير ، وابراهيم ، وعلى — المولى بعده ، وأبو الطاهر تميم ، والمعـز .

ووزراؤه : صهره سير بن أبى بكر .

وكانت خلافته (29) من أول ولايته بالمغرب ، باستخلاف ابن عمه الامير أبى بكر بن عمر اياه ، وانصرافه الى الصحراء الى حين وفاته أربعا وثلاثين سنة ، وبالاندلس من يوم خلعـه لعبد الله بن بلقين (30) الى حين وفاته سبعا وعشرين سنة .

ولما أخذ ابن عمه الامير أبوبكر بن عمر فى الحركة الى الصحراء ، حسبما تقدم ذكره آنفا ، ولاه المغرب مكانه علـى صورة النيابة عنه ، وقسم الجيش ، فترك له الثلث من لمتونة ،

---

29 — كذا ، علما بأنه لم يستخدم لقب الخلافة ، بل اعترف بالخلافـة العباسية ، ويبدو ان المؤلف اعتاد على استخدام هذه العبارة مجازا ، بحكم شيوع استخدامها من قبل صغار الحكام فى عصره ، وقد يرى البعض أن المؤلف استخدمها لاستخلاف يوسف من قبـل ابن عمـه .

30 — صاحب غرناطة واحد ملوك الطوائف ، وسيرد خبر خلعه ، ومن المفيد التنبه اليه أن تقدير المؤلف لمدة حكم يوسف فيه ما فيه؟

وانصرف بالثلثين معه داخلا الى الصحراء ، وذلك فى سنة ثلاث وستين وأربعمائة ، فأقام بعده يوسف بن تاشفين مدبرا للامور ، قائما بالملك ، واشتغل ببناء الحصن المسمى بحصن قصر الحجر ، برحبة مراكش (31) ، وجعله تحت سور وأبواب ، وحصنه .

ولما كان فى سنة أربع وستين وأربعمائة ، قوى أمره ، وعظمت شوكته ، فاشترى جملة من عبيد السودان ، وبعث الى الاندلس ، فاشترى منها جملة من العلوج (32) ، فأركبهم ، وانتهى عنده منهم مائتان وخمسون فارسا ، شراء بماله ، ومن العبيد (33) نحو ألفين ، فأركبهم فرسانا ، فغلظ حجابه ، وعظم ملكه ، وافترض على اليهود فى تلك السنة فريضة ثقيلة ، اجتمع له منها جملة مال ، استعان به على ما كان بسبيله .

ولما كان فى سنة خمس وستين وأربعمائة ، وصل الامير أبوبكر بن عمر من الصحراء ، وعاد الى المغرب بعد أخذه بثأر قومه ، واصلاح شأنهم ، فنزل بأغمات خارج المدينة ، ونزلت محلته (34) دائرة به ، وألفى ابن عمه يوسف بن تاشفين قد استولى على الملك ، وطاعت له بلاد المغرب ، فعلم أنه عزم على الاستبداد بالملك ، وتسابق أكثر أصحابه ، ممن وصل معه ، الى مراكش ، لرؤية بنيانها ، والسلام على يوسف بن تاشفين أميرها ، وكانوا قد سمعوا عن ضخامته ، وجميل

---

31 — قصر الحجر ، كان موقعه — كما يظن — حيث قبر يوسف بن تاشفين المجدد الآن ، قرب ساحة جامع الفناء .
32 — اى من الصقالبة وسواهم من الرقيق الاوربى الابيض البشرة .
33 — اى من الزنوج الافارقة .
34 — المحلة ، اصطلاح مغربى ، يقصد به ، الجيش .

كرامته ، وجزيل احسانه لاخوانه ومعارفه ، فاجتمع عنده من القادمين عليه خلق كثير ، فوصلهم على قدر منازلهم ، وأعطاهم بمقدار مراتبهم ، وأمر لهم بالكسوة الفاخرة ، والخيل المسومة ، والاموال الجمة ، والعبيد المتعددة .

ولما تشوف الامير أبوبكر بن عمر على أحوال ابن عمه يوسف بن تاشفين ، وعلم حبه فى الملك ، وأنه قد استمال نفوس من معه باحسانه ، انقطع رجاؤه من الملك ، فطلب منه تعيين يوم لاجتماعهما فيه ، فخرج الامير يوسف بن تاشفين فى جنوده وعبيده وتلقاه فى نصف الطريق ، فكان اجتماعهما ما بين أغمات ومراكش ، على تسعة أميال منها ، فسلم عليه راكبا على دابته ، ولم تكن تلك عادته قبل ، ثم ترجلا وقعدا على برنس ، فسمى ذلك الموضع بفحص البرنس ، فهو يعرف بذلك الى هذا العهد ..!

فتعجب الامير أبوبكر بن عمر مما رأى من ضخامة ملكه ، ووفور عساكره ، وترتيب جنوده ، وتحدث معه ، ثم قال له : يا يوسف أنت أخى ، وابن عمى ، ولم أر من يقوم بأمر المغرب غيرك ، ولا أحق به منك ، وأنا لا غناء لى عن الصحراء ، وما جئت الا لأسلم الامر اليك ، وأهنئك فى بلادك ، وأعود الى الصحراء ، مقر اخواننا ، ومحل استيطاننا ، فشكره يوسف بن تاشفين على ذلك ، وأثنى عليه ، وأحضر (35) أشياخ لمتونة وأعيان الدولة ، وأمراء المصامدة ، والكتاب والشهود ، والخاصة والعامة ، وأشهد على نفسه بالتخلى له عن الامر بوطن المغرب ،

---

35 — اى ابوبكر .

وقام فودعه الأمير يوسف بن تاشفين ، وعاد الامير أبوبكر الى موضع نزوله من أغمات ، ورجع يوسف بن تاشفين الى مراكش موضع ملكـه .

ولما وصل اليها بعث اليه بهدية أهداها اليه ، كان معظم ما فيها : خمسة وعشرين ألف دينار من الذهب العين ، وسبعين فرسا ، منها خمسة وعشرون مجهزة بجهاز محلى بالذهب ، وسبعين سيفا منها عشرون محلاة بالذهب ، والخمسون غير محلاة (36) ، وعشرين زوجا من المهامز (37) المحلاة بالذهب ، ومائة وخمسين من البغال المتخيرة الذكور والاناث ، ومائة عمامة مقصورة ، وأربعمائة من السوسى (38) ومائة غفارة ، ومائتين من البرانس منها : بيض ، وكحل (39) ، وحمر ، وألف شقة من لون حب الرمان ، ومائة شقة من أشكري (40) ، وسبعمائة كساء بيض ومصبوغة ، ومائتى قبطية شال مختلفة الالوان والانواع ، ومائتي جبة واثنتين وخمسين جبة أشكرلاط ملف (41) رفيع ، وسبعين كبة ملف رفيع ، وسبعة بنود كبار ، منها بند واحد محلى ، وعشرين جارية

36 — فى ك : دون حلى .

37 — فى ك + د : المهاميز

38 — فى ط . علوش : الشواشى .... وما اثبتناه هنا جاء تبعا لما ورد فى الاصول الخطية ؛ والسوسى : هو ثوب منسوب الى السوس فى المغرب ، او الى افريقية (تونس) والشواشى ج شاشية . معروفة وهى منسوبة الى الشاش من بلاد العجم وراء نهر سيحون .

39 — الاكحل هو الاسود ، ذلك ان لون الكحل (حجر الاثمد) هو الاسود .

40 — انظر معجم دوزى 25/1 .

41 — نوع من الثياب الصوفية يخاط منها الاكسية والاردية ، ومن المرجح ان أصل الكلمة مشتق من كلمة امالفى ، اسم احدى دويلات ايطالية فى العصور الوسطى .

أبكارا ، ومائة خادم ، واحدى وخمسين خادما ، وعشرة أرطال من العود الرطب ، منها رطلان من الغالى النفيس ، وخمسة نوافج من المسك الطيب ، ورطلان من العنبر الطيب ، وخمسة عشر رطلا من الند ، الى غير ذلك مما يطول ذكره من : البقر ، والغنم ، والقمح ، والشعير .

وكتب اليه كتابا يعتذر فيه اليه ، ويرغبه فى قبول الهدية ، ويقول له : كل ذلك قليل فى حقك ، فطابت نفس الامير أبى بكر ، وقال : هذا خير كثير ، ولم يخرج الملك من بيتنا ، ولا زال عن أيدينا ، والحمد لله على ذلك ، فناول اخوانه من تلك الخيرات ، وانصرف الى الصحراء ، فأقام بها ثلاثة أعوام ، والامير يوسف ابن تاشفين يمده بالهدايا والتحف ، الى أن قتله السودان المجاورن له فى الصحراء ، فى بعض الحروب التى كانت بينهم .

وفى سنة ست وستين وأربعمائة : فتح الامير يوسف بن تاشفين مدينة مكناسة ، واستنزل منها الخير بن خزر الزناتى .

وفى سنة سبع وستين وأربعمائة : فتح مدينة فاس ، وكان أميرها الفتوح بن دوناس من أبناء حمامة ، من أحفاد زيرى بن عطية الزناتى (42) .

وفى سنة ثمان وستين بعدها : فتح مدينة تلمسان ، وكان أميرها العباس بن يحيى الزناتى .

---

42 — مختلف حول تاريخ سقوط فاس للمرابطين مع اسم حاكمها آنئذ ، انظر اعمال الاعلام لابن الخطيب (القسم الثالث نشر باسم تاريخ المغرب فى العصر الوسيط) : 162 — 163 . روض القرطاس ، ط . الرباط 1973 : 111 — 114 .

ويوسف بن تاشفين كان يدعى بالامير ، فلما ضخمت مملكته ، واتسعت عمالته ، اجتمع اليه أشياخ قبيلته ، وأعيان دولته ، وقالوا له : أنت خليفة الله فى هذا المغرب ، وحقك أكبر من أن تدعى بالامير ، بل ندعوك بأمير المؤمنين ، فقال لهم : حاش الله أن نتسمى (43) بهذا الاسم ، انما يتسمى به خلفاء بنى العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة ، لانهم ملوك الحرمين : مكة ، والمدينة ، وأنا رجلهم ، والقائم بدعوتهم ، فقالوا له : لابد من اسم تمتاز به ، وبعدما أجاب الى « أمير المسلمين وناصر الدين » (44) ، خطب له بذلك على المنابر وخوطب به من العدوتين ، وأمر كتابه أن يكتبوا عنه فى ذلك ، فكتبوا ما نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

من أمير المسلمين ، وناصر الدين ، يوسف بن تاشفين .

الى الاشياخ والاعيان والكافة والخاصة من أهل « الفلانه » (45) أدام الله كرامتهم بتقواه ، ووفقهم لما يرضاه .

---

43 — فى ك : تسمونى .

44 — فى ك : وانا قائم بدعواهم ، وتابع لهم ، فقالوا له : لابد من اسم تمتاز به ، فقال لهم : ان كان ولابد ، فادعونى بامير المسلمين وناصر الدين .... هذا وهناك خلاف حول تاريخ اتخاذ يوسف لهذا اللقب ، فهناك من يذهب الى ان ذلك كان بعد معركة الزلاقة التى سيأتى ذكرها .

45 — فى ك : من بنى فلان

سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد : حمدا لله ، أهل الحمد والشكر ، ميسر اليسر ، وواهب النصر ؛ والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر ، وانا كتبناه اليكم من حضرتنا العلية بمراكش حرسها الله ، فى منتصف محرم سنة ست وستين وأربعمائة ، وانه لما من الله علينا (46) بالفتح الجسيم ، وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة ، برود النعيم ؛ وهدانا وهداكم الى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم ، صلى الله عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم التسليم ، رأينا أن نخصص أنفسنا بهذا الاسم ، لنمتاز به عن سائر أمراء القبائل . وهو « أمير المسلمين وناصر الدين » فمن خاطب الحضرة العلية السامية ، فليخاطبها بهذا الاسم ان شاء الله تعالى ، والله ولى العدل بمنه وكرمه ، والسلام .

وكانت علامته الصادرة عنه « الملك والعظمة لله » .

قال كاتب هذا : وقد جرى فى مدة الخليفة الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد ، ثامن الخلفاء من بنى أمية بالاندلس مثل هذا ، وذلك أنه كان تسمى « بأمير المؤمنين الناصر لدين الله » وأوقع هذين الاسمين على نفسه ، وقد مضت من خلافته ست عشرة سنة . وكان ذلك سنة ست عشرة وثلاثمائة ، ونسخ بها ما كان يدعى به أولا من اسم الامارة ، بعد أن سلك فى ذلك مسلك آبائه فى الاندلس منذ استخلف الى هذه السنة ، فقد كان لنمو فضله ، وتصرف الايام لمجاريه ، واطباق النفوس

---

46 — فى ك : لنا .

على تجلته ، وتعظيم صفاته ، واسماء ذكره ، وربما كان بعض أولى التحصيل والتأمل من الناس سموه بهذا الاسم ، قبل أن يتسمى به هو ، وخاطبه به كثير من خاصتهم فى كتبهم وأشعارهم، فكثر ذلك عليه ، ووافاه من كل ثنية ، وجاءه من كل ناحية ، حتى اضطره الى حمله ، وحاجوه أن يكون باخسا لنفسه فى رفضه ، وهونوا عليه مخالفة آبائه فى اقتصارهم على سواه ، واستشهدوا عليه بما فهمه الله سليمان فى الحكمة دون والده ، عليهما الصلاة والسلام ، فأنفذ الكتاب بذلك الى عماله فى جميع أقطار بلاد الاندلس ، وأوصى (47) باجراء هذين الاسمين على الالسنة فى مخاطبته فى الكتب عنه واليه ، والدعاء له بهما على منابر أعماله ، واثباتهما فى أعلامه ، ومطارده ، وطرازه ، ودنانيره ، ودراهمه ، ونفذ الامر بذلك ، وجرى العمل عليه الى آخر مدته ، وصيره « كلمة باقية فى عقبة » (48) ، سلكوا سبيله فى ذلك الى انقراض (49) دولتهم (50) ، والنسخة التى أنفذ بذلك الى عماله بأقطار الاندلس :

بسم الله الرحمن الرحيم .

أما بعد : فانا أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله ما ألبسه ، فنحن بالذى فضلنا الله به ، وأظهر منزلتنا (51) فيه ، ورفع سلطاننا اليه ، ويسر على أيدينا

47 ــ فى ك : وامضى .
48 ــ الزخرف : 28
49 ــ فى ك : الى ان انقرضت .
50 ــ فى هـ : مدتهم .
51 ــ فى ك : رتبتنا .

ادراكه (52) ؛ وسهل بدولتنا مرامه ، وللذى أشاد فى الآفاق من ذكرنا ، وأعلى فى البلاد من أمرنا ، وأعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم الينا ، واستبشارهم بما أظلهم بدولتنا ، فالحمد لله ولى الانعام بنا ، وأهل الفضل بما تفضل علينا به ، وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا « بأمير المؤمنين وناصر الدين » وخروج الكتاب عنا ، وروده علينا بذلك ، اذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له (53) ، ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه منه .

وعلمنا أن التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك ، حق أضعناه، واسم ثابت أسقطناه ، فمر الخطيب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه ، ان شاء الله ، والسلام .

وبعد ذلك بسنة خرج أيضا عهده ، ونفذ كتابه أن يكون الخطاب كله جوابا بالكتابة عنه « بالهاء » التى هى كناية الغائب دون « الكاف » ، التى هى للمخاطب ، فرقا بينه وبين من هو دونه ، وأن يلتزم ذلك أهل المملكة ، وأن تخرج كتبه بالخبر عن مخاطبته ، تعظيما لقدره ، واكبارا لمحله ، فجرى الرسم بذلك .

قال كاتب هذا : ان تتبع هذا النوع يخرج منه عن الغرض المقصود من الاقتصار ، فأعود الى ما كنت بسبيله من التعريف بأخبار الامير يوسف بن تاشفين .

وافتتح مدينة فاس سنة سبع وستين وأربعمائة ؛ وكان

---

52 — فى ك : دركه .
53 — فى ك : مدعى له .

أميرها اذ ذاك الفتوح بن دوناس بن حمامة . من أخذاد زيرى بن عطية المغراوى .

وافتتح مدينة تلمسان فى سنة ثمان وستين وأربعمائة ؛ وكان أميرها العباس بن يحيى الزناتى (54).

ولما كان فى سنة سبعين وأربعمائة : شرع فى تجديد العساكر ووفورها . وبعث الى الصحراء : لمتونة . ومسوفة ؛ وجدالة ؛ وغيرهم . يعلمهم بما فتح الله عليه من ملك المغرب ؛ وطاعة أهله ، ويؤكد عليهم فى القدوم اليه . . فوفد عليه منهم جموع كثيرة ، ولاهم الاعمال ، وصرف أعيانهم فى مهمات الاشغال ؛ فاكتسبوا الاموال ؛ وملكوا رقاب الرجال . وكثروا بكل مكان ، وساعدهم الوقت والزمان ، وكثرت جموعهم ، وتوفرت عساكرهم ، وعظم ملك يوسف بن تاشفين . وضم من جزولة ؛ ولمطة ؛ ومصمودة ، وقبائل زناتة جموعا كثيرة . وسماهم بالحشم ، وضم طائفة أخرى من أعلاجه . وأهل داخلته وحاشيته ، فصاروا جموعا كثيرة ، وسماهم الداخلين ، فاجتمع له فى الطائفتين ثلاثة آلاف فارس .

وفى سنة أربع وسبعين وأربعمائة ، وفد عليه جماعة من أهل الاندلس ، وشكوا اليه ما حل بهم من أعدائهم ، فوعدهم بامدادهم ، واعانتهم ، وصرفهم الى أوطانهم .

وكان (55) ممن كتب اليه بذلك المتوكل على الله ابن الافطس

54 – تكرار لما سبق ، لا ندرى اصادر هو عن المؤلف أم عن النساخ ؟
55 – بداية سقط طويل فى المطبوعتين .

يستصرخه حين كلب العدو على بلاده ، ومن بعض مخاطبته :

لما كان نور الهدى ــ ايدك الله ــ دليلك ، وسبيل الخير سبيلك ؛ ووضحت فى الصلاح معالمك ، ووقفتعلى الجهاد عزائمك ، وصح العلم بأنك لدولة الاسلام أعز ناصر ، وعلى غزو الشرك أقدر قادر ، وجب أن تستدعى ، لما أعضل الداء ، وتستغاث فيما أحاط بالجزيرة من البلاء .

فقد كانت طوائف العدو تطيف بها عند افراط تسلطها واعتدائها ، وشدة ظلمها ، واستشرائها ، تلاطف بالاحتيال ، وتستنزل بالاموال ، ويخرج لها من كل ذخيرة ، وتسترضى بكل خطيرة .

ولم يزل دأبها التشطط والعناد ، ودأبنا الاذعان والانقياد ، حتى نفد الطارف والتلاد ، وأتى على الظاهر والباطن النفاد ، وأيقنوا الآن بضعف المنن ، وقويت أطماعهم فى افتتاح المدن ، وأضرمت فى كل جهة نارهم ، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم ، ومن أخطأه القتل منهم ، فانما هم فى أيديهم أسارى وسبايا يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا ، وقد هموا بما أرادوه من التوثب ، وأشرفوا على ما أملوه من التغلب ؛ غياالله ؛ وياللمسلمين ، أيسطو هكذا بالحق الافك ، ويغلب التوحيد الشرك ، ويظهر على الايمان الكفر ، ولا يكشف هذه البلية الا النصر .

ألا ناصرا لهذا الدين المهتضم ، ألا حاميا لما استبيح من حمى الحرم ؟ وانا لله على ما لحق عبيده من ثكل ، وعزه من

ذل ، فانها الرزية التى ليس فيها عزاء ، والباية التى ليس مثليا بـــلاء .

ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك ، أعزك الله بالنازلة فى مدينة قورية (56) ، أعادها الله للاسلام ، وأنها مؤذنة للجزيرة بالخلاء ، ولمن فيها من المسلمين بالجلاء ، ثم ما زال ذلك التخاذل والتدابر يتزايد ، حتى تخلطت القضية ، وتضاعفت البلية ، وتحصلت بيد العدو مدينة سرية (57) ، وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع فى التحصن والامتناع ، وهى من المدينة كنقطة الدائرة ، تدركها من جميع الجهات ، دائرة بنواحيها ، ويستوى فى فىء الارض بها قاصيها ودانيها ، وما هو الا نفس خافق ، ورمق زاهق ، استولى عليه عدو مشرك ، وطاغية منافق ، ان لم تدركوها بجماعتكـــم عجالا ، وتبادروا ركبانا ورجالا ، وتنفروا نحوها خفافا وثقالا ، وما أحضكم على الجهاد بما فى كتاب الله ، فانكم له أتلى ، ولا بما فى حديث رسول الله صلى الله عله وسلم ، فانكم الى معرفته أهدى ، وفى كتابى هذا (الذى يحمله اليكم) الشيخ الفقيه الواعظ (مسائل مجملة) يفصلها ويشرحها ، ومشتمل على نكت هــو يبينها لكم ويوضحها ، فانه ــ لما توجه نحوك احتسابا ، وتكلف المشقة اليك طالبا ثوابا ــ عولت على بيانه ، ووثقت بفصاحة

56 ــ Coria ــ من مدن الثغر الادنى فى غرب الاندلس ، قال عنها الحميرى : « قريبة من ماردة ، بينها وبين قنطرة السيـــف مرحلتان ، ولها سور منيع ، وهى أولية البناء ، واسعة الفناء ، من احصن المعاقل ، واحسن المنازل » انظر ايضا كتاب الجغرافية لابن سعيد : 179 .

57 ــ Soria ــ من مدن قشتالـــة القديمة ، وكانت ضمن بلدان الثغر الاعلـــى .

لسانـــه ، والسـلام .

وانه لما بلغ هذا الخطاب لأمير المسمين ، يوسف بن تاشفين ، كتب اليه يعده بالجواز ، والامداد على العدو .

وقد كان المتوكل على الله ابن الافطس ، وصله كتاب من عند عدو الاسلام ، المواجه الى بلاده ، ومن الجواب يفهم مقصده ، والجواب عليه (58) :

وقد وصل الينا من عظيم الروم كتاب مدع فى المقادير ، وأحكام العزيز القدير ، يرعد ويبرق ، ويجمع تارة يفرق ، ويهدد بجنوده الوافرة ، وأحواله المتضافرة ، ولو علم أن لله جنودا أعز بهم ملة الاسلام ، وأظهر بهم دين نبينا محمد عليه السلام : « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم (59) » ، بالتقوى يعرفون ، وبالتوبـــة يتضرعون (60) وينصرون ، ولئن لمعت من خلف الروم بارقة فباذن الله « وليعلـم المؤمنين (61) » « وليميـز الله الخبيث مـن الطيب (62) » « وليعلمن المنافقين (63) » .

وأما تعييرك للمسلمين فيما وهن من أحوالهم ، وظهر من اختلالهم ، فبالذنوب المركوبة ، والفرقة المكتوبة ، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الاملاك ، لعلمت أى صاب أذقناك ، كما كانـت

---

58 — نهايـة السقط فى المطبوعتين .
59 — المائـدة : 54 .
60 — فى د : يتصرفون .
61 — آل عمران : 166 .
62 — الانفـال : 37 .
63 — العنكبـوت : 11 .

آباؤك مع آبائنا تتجرعه ، فلم تزل تذيقها من الحمام ، وضروب الآلام ، شر ما تراه وتسمعه ، وأداء المال تتوزعه ، وبالامس كانت قطيعة المنصور (64) على سلفك اهداء ابنته اليه ، مع الذخائر التى كانت تفد (65) فى كل عام عليه .

وأما نحن ، وان قلت أعدادنا ، وعدم من المخلوقين استمدادنا ، فما بيننا وبينك بحر نخوضه ، ولا صعب نروضه ، الا سيوفا تشهد بحدتها رقاب قومك ، وجلادا تبصره فى ليلك ويومك ، وبالله تعالى وملائكته المسومين ، نتقوى عليك ، ونستعين، ليس لنا سوى الله مطلب ، ولا لنا الى غيره مهرب ، وما « تربصون بنا الا احدى الحسنيين (66) » : نصر عليكم ، فيالها من نعمة ومنة ، أو شهادة فى سبيل الله ، فيالها من جنة ؛ وفى الله العوض مما به هددت ، وفرج (67) يبتر ما مددت ، ويقطع بك فيما أعددت .

ويرجع الخبر الى الامير يوسف بن تاشفين ، وذلك أنه لما وفد عليه جماعة من الاندلس ، حسبما تقدم ذكره ، بعث الى الاندلس برسم شراء العدة ، وآلات الحروب ، فاشترى له منها كثير ، وكان ذلك العام عام اقتناء العدة ، واتخاذ السلاح ،

64 — القطيعة : المال المفروض على العدو كل عام ، وقد يقابله فى اصطلاح المشارقة « الهدية » وكلاهما نوع من انواع الجزية ، ضمنت بها المهادنة من المسلمين ؛ والمنصور هو ابن ابى عامر مؤسس الدولة العامرية ، التى استبدت بالاندلس ، وحكم رجالها باسم الخليفة هشام المؤيد .

65 — فى د : ترد .

66 — التوبة : 52 .

67 — فى د : يفتر بما .

واقتناء الأجناد ، واختيار الرجال ، فبلغ جيشه الى اثنى عشر ألف فارس ، كلهم نخبة أنجاد ، وجاز الى الاندلس أربع مرات .

الجـــواز الاول

سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، وذلك أن أهل الاندلس ، لما بلغهم ما كان عليه من القوة والاستعداد ، والمحبة فى الجهاد ، وفد عليه جماعة من وجوهها ، فأخبروه بحالها ، وبكلب العدو عليها ، وكان الطاغية اذفنش فى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، قد غلب على طليطلة (68) ، واستولى على أعمالها ، وحازهـــا لنفسه ، وكثر الروع على الاندلس ، واشتد الخوف ، وتطرق لبـــلاد المعتمد عـــلى الله ابن عبـــاد ، ولما ملك أذفنش أعمـــال طليطلة ، طمع فى الاستيلاء على الجزيرة كلها ، وهابت الملـــوك أمره ، لكون طليطلة نقطة دائرتها ، خاطب المعتمد على الله أبا القاسم بن عباد ، يطلب منه تسليم « أعماله » الى رسله وعماله ، واشتط عليه فى الطلب ، وأظهر له السرور بالغلب ، فمما خاطبه بـــه :

من الكنبيطور ، ذى الملتين ، الملك المفضل ، الأذفنش بن شانجه ، الى المعتمد بالله سدد اللـــه آراءه ، وبصره مقاصـــد الرشاد : سلام عليك ، من مشيد ملك شرفته (69) القنا ، ونبتت فى ربعه المنى ، فاعتز اعتزاز الرمح بعامله ، والسيف بساعد

68 ــ كانت قبل الفتح الاسلامى قاعدة الحكم القوطى ، لحصانتهـــا ولتوسطها شبه الجزيرة الايبرية ، وموقعها على مقربة مـــن مدريد ، ومازالت تحوى بعض الآثار الاسلامية .

69 ــ فى ك : شريعتـــه .

حامله ، وقد أبصرتم ما نزل بطليطلة وأقطارها ، وما صار بأهلها حين حصارها ، فأسلمتم اخوانكم ، وعطلتم بالدعة زمانكم ، والحذر من أيقظ باله ، قبل الوقوع فى الحبالة ، ولولا عهد سلف بيننا ، نحفظ ذمامه ، ونسعى بنور الوفاء أمامه ، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده ، ووصل رسول الغزو ووارده ، لكن الانذار ، يقطع الأعذار ، ولا يعجل الا من يخاف الفوت فيما يرومه ، أو يخشى الغلبة على ما يسومه ، وقد حملنا الرسالة اليكم القرمط ألبرهانس ، وعنده من التسديد الذى يلقى به أمثالك ، والعقل الذى يدبر به بلادك ورجالك، مما أوجب استنابته فيما يدق ويجل ، وفيما يصلح لا فيما يخل وأنت عندما تأتيه من آرائك ، والنظر بعد هذا من ورائك ، والسلام عليك ، يسعى بيمينك وبين يديك .

ولما وصل هذا الكتاب الى المعتمد ابن عباد ، جاوب عنه بخطه من نظمه ونثره ، بما نصه :

الذل تأباه الكرام وديننا ... لك ما ندين به من البأساء
سمناك سلما ما أردت وبعد ذا ... نغزوك فى الاصباح والامساء
الله أعلى من صليبك فادرع ... لكتيبة حطمتك فى الهيجاء
سوداء غابت شمسها فى غيمها ... فجرت مدامعها بفيض دماء
ما بيننا الا النزال وفتنة ... قدحت زناد الصبر فى الغماء
فلتقدمن اذا لقيت أسنة ... زرقا ترى بالوجنة الوجناء

فى أبيات كثيرة .

وبعد ذلك : من الملك المنصور بفضل الله ، المعتمد على الله ،

محمد بن المعتضد بالله ، أبى عمرو بن عباد ، الى الطاغية الباغية أذفنش بن شانجة ، الذى لقب نفسه بملك الملوك ، وسماها بذى الملتين ، قطع الله دعواه .

سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد :

فانه أول ما نبدأ به من دعواه ، أنه « ذو الملتين » والمسلمون أحق بهذا الاسم ، لأن الذى تملكوه من أمصار البلاد ، وعظيم الاستعداد ، ومجبى المملكة ، لا تملكه قدرتكم ، ولا تعرفه ملتكم ، وانما كانت سنة سعد أيقظ منها مناديك ، وأغفل عن النظر السديد جميل مباديك ، فركبنا مركب عجز نسخه الكيس ، وعاطيناك كؤوس دعة ، قلت فى أثنائها : ليس ، ولا تستحى أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك ، وانا لنعجب من استعمالك برأى لم تحكم أنحاؤه ، ولا حسن انتحاؤه ، واعجابك بصنع وافقتك فيه الأقدار ، واغتررت بنفسك أسوأ الاغترار ، أما تعلم أنا فى العدد والعديد ، والنظر السديد ، ولدينا من كماة الفرسان ، وجيل الانسان ، وحماة الشجعان ، يوم يلتقى الجمعان ، رجال تدرعوا الصبر ، وكرهوا الكبر ، تسيل نفوسهم على حد الشفار ، وتتعاهم الهام (70) فى القفار ، يديرون رحى المنون بحركات العزائم ، ويشفون من خبط الجنون بخواتم العزائم (71) ، قد أعدوا لك ولقومك جلادا ،

---

70 — كانت العرب قبل الاسلام ترى ان الهامه طائر يخرج من راس الميت ، وكانوا يقولون : ان القتيل تخرج هامه من هامته — اى من راسه — فلا تزال تقول : اسقونى ، اسقونى ، حتى يقتل قاتله — لسان العرب .

71 — اى التمائم — ج تميمة — التى يكتبها الساحر ؛ ومنها جاء اسم المزام .

رتبة الاتفاق ، وشفارا حدادا ، شحذها الاصفاق ، وقد يأتـــى المحبوب من المكروه (72) ، والندم من عجلة الشروه ، نبهت من غفلة طال زمانها ، وأيقظت من نومة تجدد أمانها ، ومتى كانـــت لأسلافك الاقدمين مع أسلافنا الاكرمين يد صاعدة ، أو وقفـــة متساعدة ، الا ذل تعظم مقداره ، وتتحقق مثاره ، والذى جرأك على طلب ما لا تدركه قوم كالحمر (73) : « لا يقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة أو من وراء جدر (74) » ، ظنوا المعاقل تعقل ، والدول لا تنتقل ، وكان بيننا وبينك من المسالمة ، ما أوجب القعود عن نصرتهم ، وتدبير أمرهم ، ونسأل الله سبحانه المغفرة فيمـــا أتيناه فى أنفسنا وفيهم ، من ترك الحزم ، واسلامهم لأعاديهم ، والحمد لله الذى جعل عقوبتنا توبيخك وتقريعك ، بما الموت دونه ، وبالله نستعين عليك ، ولا نستبطىء فى مسيرتنا اليك ، والله ينصر دينه الكريم : « ولو كره الكافرون (75) » ، والسلام على من علم الحق فاتبعه ، واجتنب الباطل وخدعه .

وان المعتمد على الله ابن عباد كان قد أشار عليه خواصـــه بمصانعة أذفنش ، وعقد السلم معه على أداء مال معلوم عن كل حول ، فنكل عن أدائه لضعف بلاده ، وجلاء أهلها عنها ، فافترض على أهل اشبيلية فريضة ، افتقر فيها أكثرهم ، وانجلى آخرون ، فوصل اليه رسول أذفنش ، ومعه اليهودى ابن شالب ، لقبض مال

---

72 ـــ فى هذا اشارة الى قوله تعالى فى سورة البقرة : 216 « وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم » .

73 ـــ انظر سورة الحشر : 50 ـــ 56 ، حيث تجد أصل المعنى هنا ومقصد الكاتـــب .

74 ـــ الحشـــر : 14

75 ـــ التوبة : 32 ؛ الصف : 8 ، غافر : 14 .

الجزية على عادتهم ، فى كل سنة ، ونزلوا خارج اشبيلية ، فوجه اليهم المعتمد ابن عباد المال المعلوم مع بعض أشياخ اشبيلية ، منهم ابن زيدون (76) وغيره ، فلما وصلوا الى خبائه ، وأخرجوا اليه المال العين والسبائك ، قال لهم اليهودى : والله لا آخذ منه هذا العيار ، ولا آخذ منه الا مشحرا (77) ، ولا يؤخد منه فى هذا العام الا أجفان البلاد ، وزاد فى كلامه ونقص ، وأساء الأدب ، فبلغ المعتمد خبره ، فدعا بعبيده وبعض جنوده ، وأمرهم بالخروج لقتل اليهودى ابن شالب ، وأسر من كان معه من النصارى ، ففعلوا ما أمرهم به من ذلك .

فلما بلغ ذلك أذفنش ، أقسم بايمان مغلظة ، أن لا يرفع يده عنه ، وأنه يحشد من الروم عدد شعر رأسه ، ويصل بهم الى بحر الزقاق ، فكان ذلك .

وخرج أذفنش فى جيش لا يحصى كثرة، وأفسد فى الشرف (78) فسادا كبيرا ، وحرقه ، واجتاز عليه ، قاصدا حصن طريف ، فوقف على شاطىء بحر الزقاق ، والموج يضرب أرساغ فرسه ، وخاطب الأمير يوسف بن تاشفين بما نصه :

من أمير الملتين أذفنش بن شانجة بن فرنداة ، الى الأمير يوسف بن تاشفين ، أما بعد :

---

76 — هو ابوبكر بن زيدون ، ابن الشاعر المشهور ، وكان وزير ابن عباد ، انظر الروض المعطار — مادة الزلاقة — حيث قدم المؤلف رواية فيها تفاصيل ليست موجودة هنا وتختلف بعض الشىء .

77 — الذهب المشحر ، هو الذهب الخالص ، لانه « شحر » على النار ، فزال منه كل معدن خسيس ، والعبارة ما زالت مستعملة فى دارجة المغرب .

78 — Ajarafe — ان هذه التسمية هى اقرب الى الاصل العربى =

فلا خفاء على ذى عينين أنك أمير المسلمين ، بل الملة المسلمة ، كما أنا أمير الملة النصرانية ، ولم يخف عليك ما عليه رؤساؤكم بالأندلس من التخاذل ، والتواكل ، والاهمال للرعية ، والاخلاد الى الراحة ، وأنا أسومهم الخسف ، فأخرب الديار ، وأهتك الأستار ، وأقتل الشبان ، وأأسر الولدان ، ولا عذر لك فى التخلف عن نصرهم ، ان أمكنتك فرصة هذا ، وأنتم تعتقدون أن الله تبارك وتعالى ، فرض على كل واحد منكم قتال عشرة منا ، وأن قتلاكم فى الجنة ، وقتلانا فى النار ، ونحن نعتقد أن الله أظفرنا بكم ، وأعاننا عليكم ، ولا تقدرون دفاعا ، ولا تستطيعون امتناعا ، وبلغنا عنك أنك فى الاحتفال ، على نية الاقبال ، فلا أدرى أكان الجبن يبطىء بك ، أم التكذيب بما أنزل اليك ، فان كنت لا تستطيع الجواز ، فابعث الى ما عندك من المراكب لاجوز اليك ، وأنا أقاتلك فى أحب البقاع اليك ، فان غلبتنى فتلك غنيمة جلبت اليك ، ونعمة مثلت بين يديك ، وان غلبتك كانت لى اليد العليا ، واستكملت الامارة ، والله يتم الارادة .

فأمر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، أن يكتب اليه على ظهر كتابه : جوابك يا أذفنش ما تراه لا ما تسمعه ، ان شاء الله ، وأردف الكتاب ببيت أبى الطيب المتنبى :

ولا كتب الا المشرفية والقنا
ولا رسل الا الخميس العرمرم (79)

= لكلمة — الجرف — وهو ربض اشبيلية ، وهو عبارة عن « جبل شريف البقعة ، كريم التربة ، دائم الخضرة ، فراسخ فى فراسخ طولا وعرضا ، لا تكاد تشمس منه بقعة لالتفاف زيتونه ، واشتباك غصونه ، وزيته من اطيب الزيوت (الروض المعطار) .

79 — ديوانه — ط . بيروت 1926 ، ص : 250 . وانظر كتاب اعمال الاعلام قسم المغرب ص 239 .

وقد كان ابن عباد قبل هذا ، لما رأى أمره فى ادبار ، وأن الأذفنش قد عزم عليه ، شاور خاصته ، ووجوه دولته ، فى شأن استدعاء يوسف بن تاشفين ، فأشاروا عليه بمداراة الأذفنش ملك قشتالة ، وطلب معاهدته ، وعقد السلم معه على ما يذهب اليه من الشروط ، وكيف ما أمكن ، وأن ذلك أولى من تجويز المرابطين .

ثم انه خلا بعد ذلك بابنه ، وولى عهده الرشيد أبى الحسن عبيد الله ، وقال له : يا عبيد الله انا فى هذه الاندلس ، غرباء بين بحر مظلم ، وعدو مجرم ، وليس لنا ولى ولا ناصر الا الله تعالى ، وان اخواننا وجيراننا ملوك الاندلس ليس لنا فيهم نفع ، ولا ترجى منهم نصرة ولا جنة (80) ان نزل بنا مصاب ، أو نالنا عدو ثقيل ، وهذا اللعين أذفنش قد أخذ طليطلة من يد ابن ذى النون ؛ بعد سنة سبع وسبعين ، وعادت دار كفر ، وها هو قد رفع رأسه الينا ، وان نزل علينا بكلكله ما يقلع عنا حتى يأخذ اشبيلية ، ونرى من الرأى أن نبعث الى هذا الصحراوى، ملك العدوة ، نستدعيه للجواز ليدفع عنا هذا الكلب اللعين ، اذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا ، فقد تلف مجبانا ، وتبددت أجنادنا ، وأبغضتنا العامة والخاصة ، فقال له ابنه الرشيد (81) : يا أبت أتدخل علينا فى أندلسنا من يسلبنا ملكنا ، ويبدد شملنا ؟ ! فقال : أى بنى ، والله لا يسمع

80 — اى حماية ، ومنها المجن اى الترس .

81 — انظر ما كتبه ابن الخطيب فى الاحاطة : 109/2 ، عن المعتمد بن عباد واولاده .

عنى أبدا أنى أعدت الاندلس دار كفر ، ولا تركتها للنصارى ، فتقوم علي اللعنة فى منابر الاسلام مثلما قامت على غيرى ، حرز الجمال والله عندى ، خير من حرز الخنازير ، فقال له ابنه : يا أبت افعل ما أراك الله ، فقال : ان الله لم يلهمنى هذا الا وفيه خير وصلاح لنا ، ولكافة المسلمين .

فاستفتح مخاطبته ، وجعل يستصرخه ويستميله بمكاتبات، منها ، من انشائه ، ومنها من انشاء كتابه ، فمن انشائه وخطه ما نصـــه :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

الى حضرة الامام ، أمير المسلمين ، وناصر الدين ، محيى دعوة الخليفة ، الامام أمير المسلمين ، أبى يعقوب يوسف بـــن تاشفين .

من القائم بعظيم اكبارها، الشاكر لاجلالها، المعظم لما عظم الله من كريم مقدارها ، اللائذ بحرمها، المنقطع الى سمو مجدها، المستجير بالله ، وبطولها ، محمد بن عباد .

سلام الله الكريم يخص الحضرة العلية ، المعظمة السامية ، ورحمة الله وبركاته .

وكتب المنقطع الى كريم سلطانها من اشبيلية غرة جمادى الاولى سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، وأنه أيد الله أمير المسلمين ، ونصر به الدين ، انا نحن العرب فى هذه الاندلس ، قد تلفت قبائلنا ،

وتفرق جمعنا ، وتغيرت أنسابنا ، بقطع المادة عنا من معيننا ، فصرنا شعوبا لا قبائل ، وأشتاتا لا قرابة ولا عشائر ، فقل ناصرنا ، وكثر شامتنا ، وتوالى علينا هذا العدو المجرم اللعين أذفنش ، وأناخ علينا بكلكله ، ووطئنا بقدمه ، وأسر المسلمين ، وأخذ البلاد والقلاع والحصون ، ونحن أهل هذه الاندلس ليس لاحد منا طاقة على نصرة جاره ، ولا أخيه ، ولو شاؤوا لفعلوا ، الا أن الهوان منعهم عن ذلك ، وقد ساءت الاحوال ، وانقطعت الآمال ، وأنت أيدك الله ، ملك المغرب أبيضه وأسوده ، وسيد حمير ، ومليكها الاكبر ، وأميرها وزعيمها (82) ، ونزعت بهمتى اليك ، واستنصرت بالله ثم بك ، واستغثت بحرمكم ، لتجوزوا لجهاد هذا العدو الكافر ، وتحيوا شريعة الاسلام ، وتذبوا عن دين محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكم بذلك عند الله الثواب الكريم ، والأجر الجسيم ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، والسلام الكريم على حضرتكم السامية ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

ومما كتب فى استدعائه من انشاء كتابه ما ينسب الى الوزير الكاتب أبى بكر بن الجد (83) :

---

82 — كان آل عباد من اسرة رفعت نسبها الى المناذرة ملوك الحيرة ، الذين كانوا من اصل يمانى ، ومعروف ان حمير التى نسب الملثمون انفسهم اليها من اصل يمانى ، وكانت دولة حمير آخر دولة حكمت اليمن قبيل ظهور الاسلام ، ولذلك قام ابن عباد بمخاطبة يوسف بن تاشفين هكذا ... !

83 — كذا فى الاصل ، وفيه ما فيه ، ويبدو ان المراد هو ابو القاسم بن الجد ، الذى هو من رجال قلائد العقيان ، ص : 122 من ط باريس ، كما ترجم له ابن دحية فى المطرب ص : 190 ، اما ابوبكر فهو شخصية اخرى ، تأخرت وفاتها ، انظر الاعلام للسملالى المراكشى : 121/4 — 123 .

الى الملك المؤيد بفضل الله أمير المسلمين ، وناصر الدين ، وزعيم المرابطين ، أبى يعقوب يوسف ابن تاشفين ، نور الله بــه الآفاق ، وجمع به الجيوش والرفاق .

من الملك المفضل بنعمة الله ، المستجير برحمة الله ، المعتمد على الله ، محمد بن عباد ، سلام على حضرة تجرد ايمانها ، واشتهر أمانها ، أما بعد :

فان الله سبحانه أيد دينه بالاتفاق والائتلاف ، وحرم مسالك الشتات ، ودواعى الاختلاف ، وأنعم على عباده بأمير جديـــد « وقوم أولى بأس شديد » (84) ، وتطول علينا بمعلوم جدك ، ومشهور جدك ، وقد جعلك رحمة يحيى غيثها ربوع الشريعة ، وخلقك سلما الى الخير وذريعة ، وقد طرأ على الاسلام حادث أنسى كل هم ، وهمت النكبات بوقوعه وهم ، وذلك عدو أطمعه فى البلاد شتات وبين ، واختلاف سببه لم تطرف له فى الدعة عين : يقوى ونضعف ، ويتفق ونختلف ، وننام مطمئنين من آفـــات الزمان ، وتتناسخ الأمان ، وقد جاءنا ابراقه وارعاده ، ووعده وايعاده ، لنسلم له المنابر والصوامع ، والمحارب والجوامع ، ليقيم بها الصلبان ، ويستتيب بها الرهبان ، ومما يطمعه استمالته ايانا بالدعة ، واملاؤه فى الرحب والسعة ، استجرارا لما أبطنـــه ، واهجاما علينا وطنه .

وقد وطد الله لك ملكا شكر الله عليه ، جهادك ، وقيامك بحقه واجتهادك ، ولك من نصر الله خير باعث ، يبعثك الى نصر مناره ،

---

84 — الفتــح : 16 .

واقتباس نوره وناره ، وعندك من جنود الله من يشترى الجنة بحياته ، ويحضر الحرب بآلاته ، فان شئت الدنيا ، فقطوف دانية ، وجنات عالية (85) ، وعيون آنية (86) ، وان أردت الاخرى فجهاد لا يفتر ، وجلاد يحز الغلاصمويبتر ، هذه الجنة ادخرها الله لظلال سيوفكم ، واجمال معروفكم ، نستعين بالله وملائكته ، وبكم على الكافرين ، كما قال الله سبحانه ، وهو أكرم القائلين : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين (87) » .

والله يجمعنا على كلمة التوحيد ننصرها ، ونعمة الاسلام نشكرها ، ورحمة الله نتحدث بها وننشرها ، والسلام الموصول الجزيل على أمير المسلمين ، وناصر الدين ، ورحمة الله وبركاته (88) .

ولما ترادف خطابه عليه ، ووقف على مقتضى ما كتب به ، وعرف ما ذكر من معناه ، أطلع عليه اخوته ، وبنى عمه ، وقال لهم : ما ترون فيما كتب به هذا الرجل ، وكان هؤلاء المرابطون قوما صحراويين ، لم يعاينوا قط نصرانيا ، ولا شاهدوا حربا الا ما يكون بينهم ، وكانوا يودون أن يغزوا ، ويدخلوا الاندلس ،

85 — انظر سورة الحاقة : 22 — 23 ، فمنها جاء الاقتباس .

86 — انظر سورة الغاشية : 5 ، وغريب هذا الاقتباس منها ، لان معناه فى القرآن عكس ما اراده الكاتب هنا ، ولعل تصحيفا ما اصاب اصل الكلمة ، التى ربما كانت « جارية » .

87 — التوبة : 14 .

88 — وردت فقرات من هذه الرسالة ضمن رسالة استغاث بها محمد بن الاحمر — ثانى ملوك غرناطة — بيعقوب المرينى ، انظر الذخيرة السنية — ط . الرباط 1972 : 141 ، وكان الاستاذ عبد الله عنان فى كتابه دول الطوائف — ط . القاهرة 1960 : 78 ، قد نبه على ذلك

فلما استشارهم امامهم ، قالوا له : أيد الله أمير المسلمين ، أما ما ذكرت من استعانة هذا الرجل بك ، فواجب على كل مسلم يؤمن بالله ورسوله اعانة أخيه المسلم ، وأخرى فانه لا يحل لنا أن يكون جارنا ، وبيننا وبينه ساقية ماء ، فنفرده طعمة للعدو ، فهذا كما ترونه ، والامر لله تعالى ، ولأمير المسلمين .

وبعد ذلك خلا بأحد كتابه ، وهو عبد الرحمن بن أسباط ، وكان أندلسيا من أهل مدينة المرية (89) ، واستشاره فقال له : ان الأمر لله تعالى ولكم ، فقال له : ومع هذا فقل ما عندك ؟ فقال له : واجب على كل مسلم اغاثة أخيه المسلم والانتصار له ، غير أن لى كلاما أنهيه اليكم ، فقال له : قل ما عندك يا عبد الرحمن ؛ فقال له : أيد الله الأمير تعلمون أن الاندلس جزيرة مقطوعة فى البحر ، يعمر المسلمون منها الثمـــن ، وسبعة أثمان يعمرهـــا النصارى ، وهى ضيقة حرجة ، سجن لمن دخلها ، لا يخرج الا تحت حكم صاحبها ، وان أنت جزت اليها ، وحصلت فيها ما يكون لك فى نفسك شىء ، وهذا الرجل الذى استدعاك ما بينك وبينـــه متات قديم ، ولا صداقة متصلة ، ويتقى اذا قضى الله الغرض من العدو ، أن يمسكك بها ، والحال كما ترونه ، والنظر اليكم ، فاكتب اليه أنك لا يمكنك الجواز اليه الا أن يعطيك الجزيـــرة الخضراء (90) ، فتجعل فيها ثقاتك وأجنادك ، ويكون الجواز بيدك

89 — Almiria ، هى اشهر مراكز الاندلس المتوسطية ، بناها عبد الرحمن الناصر سنة 344 هـ ، وهى فى الجنـــوب الشرقى للاندلـــس ، واتصفت بالحصانة وبنشاطها التجارى والصناعى ؛ انظر مادتها فى الروض المعطار .

90 — Algeciras — كانت الجزيرة الخضراء بمرساها الجيد ، اقرب المناطق للعبور من المغرب الى الاندلس ، انظرها فى الـــروض المعطار — مادة خضراء — .

متى شئت ، فقال له : صدقت يا عبد الرحمن (91) لقد نبهتنى على شىء لم يخطر ببالى ، واكتب له بذلك .

فكتب له ما نصـــه :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

من أمير المسلمين ، وناصر الدين ، محيى (92) دعوة أمير المؤمنين .

الى الأمير الاكرم المؤيد بنصر الله ، المعتمد على الله ، أبى القاسم بن عباد ، أدام الله كرامته بتقواه ، ووفقه لما يرضاه .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد :

فانه وصل خطابكم المكرم ، فوقفنا على ما تضمنه مـــن استدعائنا لنصرتك ، وما ذكرته من كربتك ، وما كان من قلـــة حماية جيرانك ، فنحن يمين لشمالك ، ومبادرون لنصرتـــــك وحمايتك ، وواجب علينا ذلك من الشرع ، وكتاب الله تعالى ، وانه لا يمكننا الجواز الا أن تسلم لنا الجزيرة الخضراء ، تكون لنا ، لكى يكون جوازنا اليك على أيدينا متى شئنا ، فان رأيت ذلك فأشهد به على نفسك ، وابعث الينا بعقودها ، ونحن فى اثـــــر خطابك ، ان شاء الله ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

ولما ورد هذا الخطاب على ابن عباد،قال له ابنه الرشيد : ياأبت،

---

91 ـــ ترجم له ابن الخطيب فى الاحاطة : 523/3 ، وقد توفى بسبتة سنة 487 هـ ، وتقلد كتابة يوسف بن تاشفين بعده ابوبكر بن القصيرة .

92 ـــ فى ك : معـــز .

الا تنظر وتشهد الى ما طلب لك ؟ فقال له : يا بنى ذاك قليل فى حق نصرة المسلمين . فجمع ابن عباد القاضى والفقهاء ، وكتب عقد هبة الجزيرة الخضراء ليوسف بن تاشفين ، وتسليمها له بمحضر ذلك الجمع ، وبعث به اليه ، وكان ابنه الراضى يزيد ، اذ ذاك صاحب الجزيرة الخضراء ، فأمره باخلائها والانتقال عنها .

ولما وصله العقد والخطاب بالتأكيد بالجواز ، استنفر جميع حشوده (93) ، وبعث فى البلاد الى جنوده (94) ، ورحل الى سبتة (95) ، فأقام بها ، وأخذ فى تجويز عساكره حتى لم يبق منهم أحد ، وجاز هو فى اثرهم ، واحتل بالجزيرة ، ولما بلغ ابن عباد جوازه ، استعد بالضيافات الحافلة ، والهدايا الخطرة ، وقد كان يجمعها ويحتفل فيها ، ولما احتل يوسف بن تاشفين بالجزيرة ، شرع فى بناء أسوارها ، ورم ما تشعث من أبراجها ، وحفر الحفير (96) عليها ، وشحنها (97) بالاطعمة والاسلحة ، ورتب فيها عسكرا انتقاه من نخبة رجاله ، وأسكنهم بها ، ورحل نحو اشبيلية : فتلقاه ابن عباد على مرحلة من الجزيرة ، فسلم عليه ، وهم ابن عباد بتقبيل يديه ، فبادر لمعانقته ، وسأله عن حاله ، وانبسط معه فى الحديث ، وهنأه ابن عباد بالسلامة ، ولحقت

---

93 — فى د — ك : جنوده .

94 — فى د : جيوشه .

95 — مدينة معروفة بالمغرب ، هى الآن تحت الاحتلال الاسباني ، ومنها كان يتم الجواز الى الاندلس لانها تقع قبالة مرسى الجزيرة الخضراء . ولها فى تاريخ المغرب ماض حافل بالعلوم والمعارف واليها ينسب عدة أعلام .

96 — اى الخندق .

97 — فى ك : وملأها .

ضيافات ابن عباد ، فعمت جميع المحلة على حال كبرها ، وركب ابن عباد ودار بالمحلة، ونظر الى العسكر فرأى عسكرا نقيا، ومنظرا بهيا ، فلم يشك أن ذلك الجمع لا يخلو من بركة ، وأن اللعين أذفنش لا محالة مهزوم ، فكان كما كان ، فحمد الله سبحانه وأثنى عليه ، وسجد لله سجدة ، وعفر وجهه فى التراب تواضعا لله سبحانه وتعالى .

ونهضت المحلة (98) الى اشبيلية فى الضيافات الحافلة ، والهدايا المستطرفة ، والمأكولات الرغدة ، حتى وصلوا الى اشبيلية، فأقاموا بها ثلاثة أيام ، وارتحلوا الى مدينة بطليوس (99) .

وقد كان يوسف بن تاشفين كتب الى سائر أمراء الاندلس يستنفرهم للجهاد ، ويستدعيهم للحاق بمحلته ، فلحق به الأمير المظفر أبو محمد عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس ، صاحب غرناطة وأعمالها ، وأخوه المستنصر تميم صاحب مالقة (1) ، وراجع صاحب المرية المعتصم بالله أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح ، يعتذر بسبب العدو الملاحق له بحصن لييط (2) من أعمال لورقة (3) .

---

98 — فى + ك : العساكر نحو .

99 — Badajos — هى من مدن غرب الاندلس ، وهى الآن قرب الاراضى البرتغالية ؛ انظرها فى الروض المعطار .

1 — Malaga — هى مدينة معروفة ، وتعتبر الآن من مشاهير مدن اسبانيا الساحلية ؛ انظرها فى الروض المعطار .

2 — فى ك : بفحص لييط ؛ وهو الذى يدعوه الاسبان بـ Aledo وسيرد ذكر هذا الحصن فى الحديث عن الجواز الثانى ليوسف بن تاشفين الى الاندلس . وموقعه بين مرسية ولورقة .

3 — Lorca — هى مدن شرقى الاندلس — تدمير — ذات موقع حصين ؛ انظرها فى الروض المعطار .

ولحق به من وصل من الرماة(4)والاجناد، وخف من المتطوعين للجهاد ، فتلقاهم المتوكل بن الافطس على ثلاث مراحل من بطليوس ، واحتفل لهم بالتضييف ، والعلف والقرى الواسع .

وكان بين أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وأذفنش ملك قشتالة قبل هذا مخاطبات ، منها أن يوسف ابن تاشفين ، لما دنا من بطليوس ، على مقربة من فحص الزلاقة ، (5) قدم اليه كتابا على مقتضى السنة ، يعرض عليه فيه : الدخول فى الاسلام ، أو الجزية ، أو القتال ، من فصوله :

وقد بلغنا يا أذفنش أنك دعوت الى الاجتماع بك ، وتمنيت أن تكون لك فلك تعبر البحر عليها الينا ، فقد اجتزناه اليك ؛ وجمع الله فى هذه العرصة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك : « وما دعاء الكافرين الا فى ضلال (6) » .

فلما وصل الكتاب الى أذفنش ، وسمع ما كتب به اليه ؛ جاش بحر غيظه ، وزاد فى طغيانه وكفره ، وقال : أبمثل هذه المخاطبة يخاطبنى ، وأنا وأبى نغرم الجزية لاهل ملته منذ ثمانين سنة ! وأقسم أن لا يبرح من مكانه الذى نزل فيه ، وقال : يزحف الى فانى أكره أن ألقاه قرب مدينة تعصمه ، وتمنعنى منه ؛ فلا أشفى نفسى بقتله ، ولا أبلغ أملى فيه ، بينى وبينه هذا البسيط

4 — فى ك + د : الرؤساء .
5 — Sagrajos — دعاها الحميرى : « بطحاء الزلاقة من اقليم بطليوس من غرب الاندلس » وهى الآن قرب أراضى دولة البرتغال ؛ والاسم شهر بعد المعركة التى سيرد ذكرها ، انما هو ليس علما على بلدة من البلدان او مدينة ، بل اسم لبسيط من الارض يقع شمال شرقى مدينة بطليوس .
6 — الرعد : 14 .

المتسع ، فأعلم السفراء أمير المسلمين بانتخائه ، وما أظهر من طغيانه وكبريائه .

وقد كان قبل خروج اللعين أذفنش الى هذا اللقاء ، وهو بطليطلة رأى رؤيا قبل وقيعة الزلاقة بشهر ، وذلك أنه رأى فى النوم فى بعض الليالى ، كأنه راكب على فيل ، والى جانبه طبل معلق ، وهو يضربه ، فاستيقظ فزعا مذعورا ، فلما أصبح بعث الى الأساقفة من النصارى ، وأحبار اليهود ، وقال لهم : انى رأيت رؤيا أفزعتنى ، وذكر لهم نصها ، وقال لهم : ما هالنى ولا أفزعنى الا أن الفيل ليس فى بلادنا ، ولا هو بقربها ، ولا عايناه قط ، فمن أين لنا به ثم ان الطبل ما هو من شكلنا ، ولا من زينا ، فمن أين لنا به ؟ فانظروا فى تأويل هذه الرؤيا وفسروها لى ، فقد أفزعنى ما عاينت منها ، فقال له القسيسون والاحبار : أيها الملك ، تدل رؤياك على أنك تهزم جميع المسلمين ، وتغنم أموالهم ، وتسبى محلتهم ، وتأخذ بلادهم ، وترجع الى وطنك عزيزا ظافرا ، وأما الفيل الذى كنت تركبه ، فهو هذا الملك القادم ، صاحب البر الكبير ، المشترط للقائك ، تركبه برغم أنفه ، وتذلله فمثل لك بالفيل لعظمه ؛ ولكون الفيل من الصحراء ، وهذا من الصحراء ، — يعنون أمير المسلمين يوسف بن تاشفين — مثل لك به ، فقال لهم : نفسى تحدثنى ، وهى صادقة ، أنكم فى تفسيركم لمنامى على باطل ، وما تعرفون شيئا ، ثم رد رأسه الى جماعة من المسلمين ، ممن حضر مجلسه ، من بقايا الساكنين ببلاده ، فقال لهم : أتعلمون هنا أحدا من علماء المسلمين ؟

فقالوا له : نعم هنا رجل من فضلاء المسلمين وعلمائهم ، ويعرف بمحمد بن عيسى المغامى ، يقرىء فى مسجده كثيرا من فقهاء المسلمين ، فقال لبعض منهم : انطلقوا اليه وأتونى به ، فانطلقوا ، وقالوا له : ان الملك يدعوك ، فقال : وما حاجته بى ، فقالوا له : انه رأى رؤيا أفزعته ، وقد فسرها له أساقفة النصارى وأحبار اليهود ، فلم يرض بقولهم ، ولا صدقهم ، فقال لهم : والله لا آتى كافرا أبدا ، فقالوا له : اتق الله على نفسك من سطوته ! فقال لهم : ان الله وليى وحافظى ، والخير والشر بيده ، فطمعوا به ليصل اليه ، فأبى ، ورجعوا الى أذفنش ، فقال لهم : وأين الرجل الذى توجهتم اليه ؟ فحسنوا له اللفظ ، واعتذروا عنه ، وقالوا له : ايها الملك ، ان الرجل عابد ورع ونحن المسلمين عبادنا ما يرون فى دينهم أن يغشوا أبواب الملوك ؛ فان رأى الملك أن يلقى الينا من الكلام ما نأتى به من عنده بجواب شاف، فعل، فقال لهم : كنت أرى كذا وكذا، وقص عليهم رؤياه، فانطلقوا الى الفقيه أبى عبد الله المغامى ، فوجدوه يقرأ بمسجده داخل طليطلة (7) مع من بقى بها من فقهائها من المسلمين ، فقصوا عليه الرؤيا ، وقالوا له : تدبرها فى نفسك ، حتى تلقى الينا نص تفسيرها له : فقال لهم الفقيه : الأمر فيها قريب ، أعلموه أنه سيهزمه المسلمون هزيمة قبيحة ، يخرج منها مفلولا فى نفر يسير من أصحابه ، والدليل على ذلك من كتاب الله العزيز ، فى قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم

7 — فى هـ : فى مسجده بطليطلة ؛ والمسلمون دائرون به .

طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل (8) » ، عنى بهـا الباري عز وجل أبرهة الحبشى ، وأما الطبل الذى كان يضربه ، فمن قوله تعالى : « فاذا نقر فى الناقور . فذلك يومئذ يوم عسير . على الكافرين غير يسير (9) » ، فرجعوا اليه ، وأعلموه بنص ما عبر لهم ، فقطب وجهه ، وقال : ودين المسيح لئن كذب لأمثلن به ، فبلغ الخبر الى الفقيه المغامى ، فقال : والله ما يقدر على ذرة الا باذن الله وقضائه ، وأنا واثق بالله ربى ، ولا قوة الا بالله العلى العظيم (10) .

وان أذفنش ــ لعنه الله ــ نسى تلك الرؤيا ، وأخذ فى جمعه وحشده ، وتأهب للقاء المسلمين ، واحتفل فى الاستعداد ، وخرج ومعه ثمانون ألف فارس ، لابسين الدروع دون غيرهم ، حتى انتهى الى فحص الزلاقة ، وكان عسكر المسلمين يناهز خمسين ألف فارس : أربعة وعشرون ألفا من فرسان الاندلسيين ما بين مدرع ولابس ، ومثلها أو أكثر منها مرابطون ، وأهل العدوة (11) .

---

8 ــ الفيل : 1 ــ 4 .

9 ــ المدثر : 8 ــ 10 .

10 ــ آثار الاختراع على هذه القصة واضحة ، انظر رواية اخرى لها تختلف فى الروض المعطار ــ مادة زلاقة ــ ، اما المغامى ، فهو من اهل طليطلة ، وتوفى باشبلية سنة 485 هـ . انظر صلة ابن بشكوال : 258/2 . (ط . القاهرة) .

11 ــ هناك خلاف حول اعداد جيوش الزلاقة ، ذكر الحميرى فى روضه ــ مادة زلاقة ــ بأن اذفنش ــ الفونسو ــ اختار ممن اجتمع اليه انجادهم : « وقال حين نظر الى ما اختاره من جموعه : بهؤلاء اقاتل الجن والانس ، وملائكة السماء ، فالمقلل يقول : كان هؤلاء المختارون من اجناده اربعين الف دارع ، ولابد لمن هذه صفته أن يتبعه واحد او اثنان ، واما النصارى فيعجبون ممن يزعم ذلك ويقوله ، واتفق الكل ان عدة المسلمين كانت اقل من عدة المشركين ».

ولما احتلت عساكر المسلمين بظاهر بطليوس ، واحتل أذفنش بفحص الزلاقة ، على أربعة فراسخ من بطليوس ، كتب الى أمير المسلمين مكرا منه ، يقول : « ان غدا يوم الجمعة ، ولا نحب مقاتلتكم فيه لانه عيدكم ، وبعده السبت يوم عيد اليهود ، وهم كثيرون فى محلتنا ، ونحن نفتقر اليهم ، وبعده الاحد عيدنا ، فنحترم هذه الأعياد ، ويكون اللقاء يوم الاثنين ، فقال أمير المسلمين : أتركوا اللعين وما أحب (12) .

حدث أبو محمد عبد العزيز بن الامام ، أحد خواص المعتمد بن عباد ، قال : كنت فى عسكره عند توجهه مع يوسف بن تاشفين الى لقاء الطاغية أذفنش بن فرلندة ، ملك قشتالة فى غزوة الزلاقة ، وهى أول غزوة غزاها المرابطون بالاندلس ، وكان الناس يرحلون برحيل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وينزلون بنزوله تقديما له ورعيا لمكانه من السن ، وعظم الملك ، ووفور العدد ، وجودة الرأى ، وكمال العقل ، فسمعنا طبوله تضرب ، وقيل ان أمير المسلمين يتقدم الى لقاء العدو . فأمر المعتمد بن عباد منجمه بتحقيق طالع الوقت ، والنظر فيه ، قال : فوجده بحسب ما تقتضيه

12 — ذكر الحميرى — نفس المصدر والمادة — أن المعتمد ابن عباد قال آنئذ ليوسف بن تاشفين : « هذه خديعة من ابن فرلندة ، انما يريد غدر المسلمين ، فلا تطمئن اليه ، وليكن الناس على استعداد له طول يوم الجمعة ، وعلى احتراس كبير ، وابن عباد مواظب على احتراس جميع المحلات خائفا عليها من كيد العدو » ، واهتم ابن عباد بمحلات الملثمين الصحراويين « اذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد ، وجعل يتولى ذلك بنفسه ، حتى قيل ان الرجل من الصحراويين كان يخرج عن طرق محلاتهم لبعض شأنه ، أو لقضاء حاجته ، فيجد ابن عباد بنفسه مطيفا بالمحلة ، بعد ترتيب الكراديس من خيل على افواه طرق محلاتهم ، فلا يكاد الخارج منهم عن المحلة يخطىء ذلك من لقاء ابن عباد ، لكثرة تطوافه عليهم » .

أصول تلك الصنعة ، دالا على أن الدائرة تكون على المسلمين ؛ وأن الظفر والغلبة للمشركين .

قال : فأشفق المعتمد من ذلك ، وكره اعلام أمير المسلمين به ؛ لنفاره من الاستدلال بالنجوم ، والتظاهر بها ، والعمل بها ، ولم يمكنه غير مساعدته ، والانتقال معه ، فبينما هو يحاول ذلك ، اذ خفتت الأصوات ، وهدأت الضجة ، وجاء من أخبر أن أمير المسلمين ، قد بدأ فى الانتقال من مناخه ، فلما كان بعد ساعة من ذلك اليوم بعينه ، عادت الأصوات ، وضربت الطبول ، فأمر ابن عباد منجمه ، بأخذ طالع الوقت ، والنظر فيه . فوجده أوفق طالع ، وأسعد « نصبة » له ، وأدلها على الظفر للمسلمين ، والدائرة على المشركين ، حسبما جرى الأمر عليه .

قال : فتعجبت من ذلك ، ومن قوة سعد يوسف بن تاشفين .

وقال : هذا ، من المصنوع لهم ، المعتنى بأمرهم (13) ، الملهمين الى رشدهم ، الذين يدبر لهم التوفيق ، ويخدمهم (14) البخت وذلك كله بمشيئة الله تعالى ، وسابق علمه ، ونافذ حكمه ، وكتب اليه من منزله المذكور ، هذه الأبيات :

غزو عليك مبارك ... فى طيه الفتح القريب
لله سيفك انه ... سخط على دين الصليب
لابد من يوم يكو ... ن له أخا يوم القليب (15)

---

13 — فى ك : المعنى بأمر المسلمين الى رشدهم .
14 — فى د : يحمدهم ، وفى ك : يحدهم .
15 — اى يوم معركة بدر الكبرى ، والابيات هذه رواها الحميرى فى روضه — مادة زلاقة — مع زيادة بيت واختلاف بالالفاظ .

فكأنه نطق بالغيب ، فكانت الهزيمة على اللعين ، يــوم الجمعة الثانى عشر لرجب الفرد ، سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، فلما كان يوم الجمعة ، استعد اللعين للقاء المسلمين ، ليأخذهم على حين غفلة ، غدرا منه ، وارتقـــى فى ربوة مع جماعـــة زعماء قومه ، ليبصر أعداد جيوشه ، فأعجبه ما رأى من كثرتهم ، ولمعان دروعهم ، فقال لابن عمه غرسية ، هذا اليوم لنا فيه الغلبة على المسلمين ، فقال غرسيه : ان كان سبق لك بذلك القضاء ، فقال : أنا الغالب ، سبق أو لم يسبق ، فقال له ابن عمه : انى لا أحضر معك هذا اللقاء ، واعتزل بناسه — وكانوا نحو ألف فارس — فعند ذلك تقدم بجيشه قاصدا محلة المسلمين ، فأقبلت طلائع ابن عبــاد تنادى وتقــول : ان الــروم فى أذيالنـــا ، والنــــــاس على طمأنينة . وقد كانوا اتفقوا على أن : يكون المعتمد بن عباد فى قلب المقدمة ، والمتوكل ابن الافطس فى ميمنتها ، وأهل شرق الاندلس فى ميسرتهـــا ، وسائر أهل الاندلــس فى الساقـــة ، والمرابطون وأهل العدوة كمائن متفرقة ، تخرج من كل جهـــة عند اللقاء ، فلما أعلم ابن عباد بقدوم الطاغية عليه ، بادر الركوب على غير تعبئة ، ولا أهبة ، وغشيتهم خيل العدو كالسيل ، وعمتهم كقطع الليل ، وظنوا أنها وهية (16) لا ترقع ، فوافق محلة ابن عباد فى طريقه بأهل اشبيلية وسائر عماله ، فوقعت بينهــــم حروب صعبة كانت الدائرة فيها على أهل اشبيلية ، استأثر الله فيها بأرواح شهدت لها الرحمة، وخطبتها الجنة، وخرج ابن عباد بجراحات ، وأبلى فى ذلك اليوم بلاء حسنا ، وأنشد فى ذلك اليوم

16 — فى د : وهلة لا تدفع .

شعرا ، قاله فى أثناء الحرب يذكر ابنه زين الدولة (17) ، المعلى ، أبا هاشـــم :

أبا هاشم هشمتنى الشفـــار فلله صبرى لذاك الأوار (18)
ذكـــرت شخيصك ما بينهـــا فلم يثننى حبه للفرار (19)

قال : ثم ثاب العسكر من المسلمين لأنفسهم ، وحملوا على محلة أذغنش حملة صادقة .

وقد كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين على حين غفلة ، ولم يكن عنده علم بما وقع ، اذ كانت محلته بعيدة عن محلة ابن عباد ، حتى بعـــث اليه ابن عباد كاتبه ابـــن القصـــيرة (20) ، فأخبره (21) ، فركب وأحدق به زعماء لمتونه ، وكبراء صنهاجة ، وسائر عسكره ، فقصد بهم محلة الطاغية فاقتحمها ، وأضرمها نارا ، وضرب طبوله فاهتزت له الارض ، وتجاوبت الآفاق ، فارتاعت قلوبهم ، وتجلجلت أفئدتهم ، ورأوا النار تشتعل فى محلتهم ، وأتاهم الصريخ بهلاك أموالهم وأخبئتهم ، فسقط (22) فى أيديهم ، فثنوا أعنتهم ، ورجعوا قاصدين محلتهم ، فالتحمت

17 — فى الروض المعطار — مادة زلاقة — : « وتذكر فى تلك الحال ابنا له صغيرا ، وكان مغرما به ، كان تركه باشبيلية عليلا ، اسمه المعلى ، وكنيته ابوهاشم » .

18 — فى د : فلله من حد ذاك الاوار .

19 — فى د : فلم يلقنى حبه للفرار .

20 — فى الروض المعطار — مادة زلاقة — هو ابوبكر محمد بن سليمان ، انظره فى الاحاطة : 516/2 . الذيل والتكملة : 227/6 .

21 — زاد الحميرى — نفس المصدر والمادة — تفاصيل اوفى مما جاء هنا .

22 — ذكر الحميرى — نفس المصدر والمادة — انه عندما تحرك الجيش المغربى « امر يوسف بعض قواده ان يمضى بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلة النصارى فيضرمها نارا ما دام ابن فرذلند مشتغلا مع ابن عباد » .

الفئتان ، واختلطت الملتان ، واشتدت الكرات ، وعظمت الهجمات والحروب تدور على اللعين ، وتطحن رؤوس رجاله ، ومشاهير أبطاله ، وتقذف بخيلهم عن يمينه وشماله ، وتداعى الاجناد الحشم والعبيد للنزال ، والترجل عن ظهور الخيل ، ودخول المعترك ، فأمد الله المسلمين بنصره ، وقذف الرعب فى قلوب المشركين ، وتحصلوا بين عسكر ابن عباد ، وعسكر يوسف بن تاشفين ، وفى أثناء ذلك ، تلاقى بالطاغية أذفنش غلام أسود بيده خنجر يدعوه البرابر ، بالافطس ، قطع جرز درعه ، وطعنه فى فخذه مع مدار سرجه ، فكان أذفنش يقول بعد ذلك : التحق بى غلام أسود فضربنى فى الفخذ بمنجل أراق دمى ، فتخيل له الافطس أنه منجل لكونه رآه معوجا ، ففر أمامه وسيوف المسلمين تتبعه ، حتى ألجأوه الى ربوة عالية اعتصم بها لتعذر مرتقاها ، وأحدقت بها الخيل ، فقال لهم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين : الكلب اذا أرهق لابد أن يعض ، وقد سلم الله المسلمين من معرته ، ولم يقتل منهم الا القليل ، فان هجمنا على هؤلاء ، أبلوا بلاء عظيما ، ولكن اتركوهم (23) ، ولاحظوا حالهم ، فلما جن

---

23 — عندما يتساءل المرء عن الاسباب التى عاقت المسلمين عن استغلال نصرهم الكبير هذا ، نجد الحميرى يروى فى روضه — مادة زلاقة — ما يفيد ، وهو : « ولما انحاز الطاغية بشرذمته ، جعل ابن عباد يحرض على اتباع الطاغية ، وقطع دابره ، فأبى ابن تاشفين واعتذر بأن قال : ان اتبعناه اليوم لقى فى طريقه أصحابنا المنهزمين راجعين الينا منصرفين فيهلكهم ، بل نصبر بقية يومنا حتى يرجع الينا أصحابنا ، ويجتمعوا بنا ، ثم نرجع اليه فنحسم داءه ، وابن عباد يرغب فى استعجال اهلاكه ، ويقول ان فر امامنا لقيه اصحابنا المنهزمون ، فلا يعجزون عنه ، ويوسف مصر على الامتناع من ذلك ، ولما جاء الليل تسلل ابن فرذلند وهو لا يلوى على شىء ، واصحابه يتساقطون فى الطريق واحدا بعد واحد من اثر جراحهم ، فلم يدخل =

الليل ، فروا وأصبحوا يوم السبت فلم يوجد لهم أثر ، ثم ثنى أمير المسلمين عنانه ، فنزل الناس بنزوله ، وقد أبان الله بصارمه تلك الشوكة ، واستأصل أولئك الجموع المشركة . ولم يفلت منهم أكثر من أصحاب غرسيه ، الذى اعتزل عن القتال ، وهم نحو أربعمائة أفلتوا مع الطاغية .

وكانت هذه الغزوة المعروفة بوقعة الزلاقة ؛ الغزوة التى أظهر الله فيها دين الاسلام ، ونصر حزبه ، ونفس عنه كربه ، ولم يكن فى الاندلس غزوة أعظم منها ، قتل فيها من النصارى نحو ثلاثمائة ألف .

قال الفقيه أبو يحيى بن اليسع (24): ذكر لى جماعة ممن حضرها أنه وجد فيها أقوام من الروم عليهم دروع محصنة ، قطعت السيوف أوساطها مع الجثث ! .

وأخبر الفقيه أبو مروان العذرى ، وكان ممن شهد تلك

= طليطلة الا فى دون المائة .

وتكلم الناس فى اختلاف ابن عباد وابن تاشفين ، فقالت شيع ابن عباد : لم يخف على يوسف ان ابن عباد اصاب وجه الرأى فى معاجلته ، لكن خاف ان يهلك العدو الذى من اجله استدعاه ، فيقع استغناء عنه ، وقالت شيع يوسف : انما اراد ابن عباد قطع حبال يوسف من العود الى جزيرة الاندلس ، وقال آخرون : كلا الرجلين اسر حسوا فى ارتغاء — اى اظهر امرا اراد فى قرارة نفسه غيره — وان كان ابن عباد احرى بالصواب » .

24 — منسوب الى جده اليسع بن عيسى بن حزم الغافقى ، صاحب كتاب « المعرب — او المغرب — فى محاسن المغرب » الفه لصلاح الدين يوسف بن ايوب ، وهو صاحب الخطبة بقطع الدعوة الفاطمية فى مصر ايام نور الدين بن زنكى ، نقل عن كتابه المعرب المقرى فى نفح الطيب ، مواد كثيرة ، وهو أيضا من مصادر كتاب نظم الجمان لابن القطان ، انظره فى معجم اصحاب الصدفى ، ط . مدريد 1885 : 322 .

الوقعة ، وممن له ملابسة بتلك الأمور ، قال : وانتدب المسلمون فى موضع المعركة الى قطع رؤوس النصارى ، فجمع منهم أعداد ، وكدس منها أكداس كالصوامع المنيفة ، ونظروا أطول قناة كانت فى المحلة ، فنصب ورست الرؤوس من حواليها ، فغطتها ، ويذكر أن عدد الرؤوس التى جمعت بين يدى ابن عباد بلغت الى أربعة وعشرين ألف رأس (25) .

ولما فرغ الناس من هذا الفتح ، تناول ابن عباد اضبارة كاغد ، على عرض الاصبع ، وكتب فيها سطرين الى ابنه الرشيد : « الى ابنى الرشيد ، وفقه الله ، اعلم أنه التقت جموع المسلمين بالطاغية أذفنش اللعين ، ففتح الله للمسلمين ، وهدم على أيديهم المشركين ، والحمد لله رب العامين ، فأعلم بذلك من قبلك من اخواننا المسلمين ، والسلام (26) » .

وكان ذلك عند الزوال من الجمعة ، وعلق الاضبارة فى جناح حمام ، كان احتمله معه لهذا الحال ، فكان الناس باشبيلية أقنط ما كان فى ذلك اليوم ، فوصل الحمام من يومه ، وقرئت على الناس بمسجد اشبيلية ، فعم السرور ، وكثر الدعاء ، ثم بعد ذلك وردت الكتب تشرح مجمل هذا الفتح الجليل ، وكتب المعتمد بن عباد ، والمتوكل ابن الافطس ، والمظفر عبد الله بن بلقين ، وكل من شاهد الحرب من الملوك ، كتبهم الى الآفاق ، مبشرين بما شفى الله به الصدور ، وأذهب غيظ القلوب ،

---

25 — ليس هذا بالجغرافى الاندلسى المعروف ، الذى طبعت نصوص من كتابه فى مدريد عام 1965 .

26 — انظر الاحاطة : 114/2 .

ومعلمين بما آتاه الله عليهم من أنفاليم .

وكان مما كتب به المعتمد ابن عباد الى حضرة اشبيلية ، وسائر أعماله من انشاء الكاتب أبى محمد عبد الله بن عبد البر (27) النميرى ، ومن فصوله ما نصه :

لما كان يوم الجمعة الثانى عشر لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، سنى الله أمرا يسر (28) أسبابه ، وفتح لنا الى الفرج والفتوح بابه ، وعطف علينا القابل للتوب ، الغافر للذنب ، والتقينا مع الطاغية الباغية ، الذى أجاب الموت دعيه ، وأخزى التوفيق مساعيه ، بعد غدر أبداه ، وجرى فيه مداه . وكان تواعدنا معه لنلتقى فى سواد ، فأتى والنقض يجرر ذيل مرداه ، والغيب يشهد عليه بما أرداه ، والغدر يعلمنا أنه طعمة من نواه ، فاستبشرنا أنه ابتدأ بالغدر الذى يرديه ، وتعجل سلوك طريق لا تهديه ؛ وتحققنا أنها مقدمة فتح سبقت ، ونواسم سعد عبقت ، والنصر لا تخفى دلالته ، واليمن لا تسترد غلالته ؛ فتدارك اخواننا المسلمون بالتصاف ، وتصافحوا بالاعتراف والانصاف ؛ وجرت البسائط ذيول الزرد وشكرت الشفار فعل الصقيل الفرند ؛ ولما احلولك ليل الحرب واغطش ، وغار ماء ثبجها فأعطش ، طلع فجر السعادة فأنجح ، ونادى من كتب السلامة : أصبح ، أصبح ؛ وعن قريب طلعت شمسها تشرق ، وتهلك الكافرين وتحرق ؛ ليس دونها حجاب يستر شعاعها ، ويحجب لماعها ، ولما تسامتت

---

27 — ترجمه صاحب القلائد : 206 — من ط . باريس — ومنه اضيف ما بين الحاصرتين .
28 — فى د : هيا اسبابه .

الرؤوس ، وأحدق الرئيس بالمرؤوس ، ظللنا نرتب الجماجم ، وكأنها من أعجب أحلام نائم ، ولما صعد المؤذنون أكواما بنتها أيدى الايد من هاماتهم ، وحصدتها بواتر قطعتها بلاماتهم (29) . أعلنوا بكلمة الاخلاص فوق آذان وعت ، ما كانت عنه صمت . وأدمعة أنزلها الندم على ما [illegible] به همت ، وقرت العيـــون ، وانشرحت الصدور ، « وأشرقت الارض (30) » كلها بهذا النور ، وهذا وفقكم الله فتح الفتوح ، أنذر بين يدى نجواه (31) ، بنصر . يعجز عنه الحصر .

وقد كان فى أول اللقاء جولة على المسلمين ، قضى اللـــــه بالشهادة فيها ، لمن اهتم بأمانيها ، ثم أنزل سكينته ، فخطبت نصال المسلمين ، رقاب الكافرين ، فأنكحتها أبكارا ، صانتها حجال المغافر ، وحجبتها ستور الطوارق عن عيون البواتر ، ولا مهر الا ما نووه من كرم نفوس ، جادت متطوعة ، ومشت الى الخيرات مسرعة فنفلهم الله أنفالهم ، ووعدهم بالنصر ، فأوفى لهم .

فتلقوا رحمكم الله هذه النعم بالشكر ، كما تلقينا ، وقولوا الحمد لله رب العالمين على نعم أصبحنا فيها ، وأمسينا ، والله يصلها بالتأييد ، ويتبعها بالتوفيق والتسديد ، والسلام .

ولما قضى الله بهذا الفتح الجليل ، والصنع الجميل ، أقام المسلمون فى جمع أسلابهم ، وضم عددهم مدة أيام . فامتلأت أيديهم بالغنائم الوافرة ، والسبى الكثير ، واكتسبت الناس فيها

29 — اى بدروعهم .
30 — انظر سورة الزمر : 69 .
31 — انظر سورة المجادلة : 12 — 13 .

من آلات الحروب ، والاموال ، وسيوف الحلى ، ومناطـــق الذهب والفضة ما أغناهم .

وكان يوما لم يسمع بمثله من يوم اليرموك والقادسية ، فياله من فتح ما كان أعظمه ، ويوم كبير ما كان أكرمه ، فيوم الزلاقة ثبت قدم الدين بعد زلاقها ، وعادت ظلمة الحق الـى اشراقها ، نفست مخنق الجزيرة بعض التنفس ، واعتز بهـا رؤساء الاندلس ، فجزى الله أمير المسلمين ، وناصر الدين ، أبا يعقوب يوسف ابن تاشفين ، أفضل الجزاء ، بما بل مـــن أرماق ، ونفس من خناق ، وصل لنصر هذه الجزيرة من حبل ، وتجشم الى تلبية دعائها ، واستبقاء ذمائها (32) ، من حزن وسهل ، حتى هزم على يده أعداء الله المشركون ، وظهر أمـر الله وهم كارهون .

قال محمد بن الخلـف : ولما فرغ من وقعة الزلاقـة ، وانصرف أهل الاندلس الى بلادهم ، ورد عليه خطب أوجعه ، ونبأ أفجعه ، بموت ابنه أبى بكر سير ، فتعجل ايابه من العدوة ، وصدره ، وقد قضى فى عدو الملة وطره .

هذا هو تلخيص الخبر عن جوازه الاول الى الاندلس .

الجـــواز الثانـــى

كان جوازه الثانى سنة احدى وثمانين وأربعمائة . سببه : حدث الوزير أبوبكر بن عقاب قال : لما كان بعد وقعة الزلاقة

32 ـــ الذماء : بقيـــة الروح .

بسنتين ، وفدت على أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين بحضرة مراكش جملة من وجوه الاندلـس من أهل : بلنسيــة (33) ، ومرسية (34) ، ولورقة (35) ، وبسطة (36) ، فشكوا اليه ما حل بأهل بلنسية من شأن الكنبيطور ، وكان من ملوك الروم ، قد لازم حصارها سبع سنين (37) ، حتى دخلها ، وشكوا له ما حل بأهل مرسية ، وأعمال لورقة وبسطة من شأن لبيط ، وهو حصن حصين على رأس جبل شاهق ، بينه وبين لورقة نصف يوم ، يملكه العدو ، وكانت سراياه تغير شرقا وغربا ، اذ كان فى موسطة بلاد المسلمين ، فلم يزل وجوه الاندلس ، من تلك البلاد ، يترددون اليه بالشكوى ، حتى وعد بالجواز اليهم ، اذا تمكن الفصل (38) .

ثم ان ابن عباد تحرك من اشبيلية فى خاصته ، وجاز البحر

---

33 — Valancia ، مدينة كانت من قواعد شرقى الاندلس ، هى الآن على البحر الابيض المتوسط ، بينها وبين مدريد 356 كم ، صلتها وثيقة بالجزائر الشرقية — ابيليار — انظر الروض المعطار . الحلـــل السندسية : 109/1 . مجلة البينة — السنة الاولى 1962 ، العدد الثالـث : 24 .

34 — Murcia ، مدينة على نهر شقورة ، كانت قاعدة كورة تدمير ، بناها الامير عبد الرحمن الثانى الاموى ، وكانت ذات شأن كبير ، حتـى كاد اسمها ينسى اسم تدمير . انظر الروض المعطار . الحلـــل السندسية : 114/1 . مجلة البينة — العدد الثالث : 31 .

35 — Lorca ، كانت من بلاد تدمير ، وصفت بالحصانة ، وتبعد عـن مرسية بأربعين ميلا . الروض المعطـــار . الحلـل السندسيـــة : 117/1 — 118 . مجلة البينة : 30 .

36 — Baza ، تقع شمال شرق غرناطة ، وتبعد عنها بنحو 125 كم وعن مدينة وادى آش بنحو 48 كم شرقا . معيار الاختيار للســـان الدين ابن الخطيب — ط . الرباط 1977 : 60 . الروض المعطار . الحلل السندسية : 126/1 — 127 . مجلة البينة : 24 .

37 — فى ك : حاصر بلنسية سبع سنين . وفى د : حاصرها سبع سنين .

38 — اى اذا تمكن الفصال بيننا ، وابرم العقد على اتفاق كامل .

الى يوسف بن تاشفين ، فتلقاه بالمعمورة (39) على حلق وادى سبو ، وقابله بالسلام والترحيب ، بوجه طلق ، وصدر رحب ، واكرام جم ، وقال له : ما السبب الذى دعاك الى الجواز الينا ، وهلا كتبت بحاجتك ، فقال له : جئتك احتسابا وجهادا ، وانتصارا للدين ، وقد أجرى الله الخير على يديك ، وحظك مما جئت بــه الحظ الاوفر ، وقد اشتد ضرر النصارى المستولين على حصـن لبيط ، وعظم أذاه بالمسلمين ، لتوسطه فى بلادهم ، ولا جهـاد أعظم منه أجرا ، ولا أثقل فى الميزان وزنا ، فتلقى أمير المسلمين مقصدة بالقبول ، ووعـده بالحركة والجـواز ، فاستحثـه ، واستوثق منه ، وصدر الى حضرة اشبيلية ، وتقدم الى كـل طبقة من أهل مملكته بالاستعداد ، وأكثر أعمال السهام والمطارد ، وعمل العرادات ، وغير ذلك من الآلات .

ولما رتب أشغاله ، ومهد أحواله ، وكمل من ذلك مراده ، اتصل به قدوم أمير المسلمين ، وجوازه البحر ، واستقـراره بالجزيرة الخضراء ، فتلقاه ابن عباد على عادته بما يقدر عليـه من الكرامات والمبرة ، وأنفذ أمير المسلمين كتبه لملوك الاندلس يستدعيهم للجهاد معه ، والموعد حصن لبيط ، فاجتاز على مالقة ، واستنفر صاحبها المستنصر بالله تميم بن بلقين بن باديس ، وتلاحق

39 — فى ط . علوش : بالداخلة ، وفى ك : بالمدخلة ، وفى د : بالرحلة ، وفى هـ : بالمحلة ، وكله تصحيف صوابه ما اثبتناه عن ابن ابى زرع فى روض القرطاس — ط . الرباط 1973 : 152 حيث جاء : « فلقيه بالمعمورة من حلق وادى سبو » ونقل الناصرى فى الاستقصا : 51/2 عبارة القرطاس ، واضاف عليها : وهذه المعمورة هى المسماة اليوم « المهدية » ؛ من الاهداء وليس من البداية او المهدوية .

به أخوه المظفر عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، والمعتصم بن صمادح من المرية ، وتوافى رؤساء الاندلس من شقورة (40) ، وبسطة ، وجيان (41) ، ومن كل مكان ، وجاءهم من مرسية النجارون والبناؤون والحدادون واضطربت المحلة محدقة (42) بحصن لييط ، وكان بداخله من الروم ألف فارس ، واثنا عشر ألف راجل ، واتصلت الحروب ، وكثر الوارد ، وتمادى القتال على الحصن ليلا ونهارا مدة شهر (43) ، وكل أمير من أمراء الاندلس ، يقاتل فى يوم ، بخيله ورجله ، مداولة بينهم .

واجتمع المعتمد ابن عباد ، ويوسف بن تاشفين ، وظهر لهما من حصانته ومنعته ، واستعصامه ما آيسهم عنه ، وأنه لو كان دون سور لكان شفا جرفه عاصما لمن فيه ، وأنه لا يتأتى لهم أخذه الا بالمطاولة ، وقطع مادة القوت عنهم ، وكان من جملة من وصل من رؤساء الاندلس ابن رشيق ، صاحب مرسية ، الثائر بها على المعتمد ابن عباد ، فشكا ابن عباد بابن رشيق لأمير المسلمين ، وذكر انتزاءه عليه ، وأنه دفع جبايتها مصانعة للطاغية أذفنش ، فحضر ابن رشيق ، واستفتى يوسف بن ناشفين

---

40 — Segura — مدينة من أعمال جيان ، وهى حصن عامر فى راس جبل يخرج من اسفله نهران ، احدهما نهر قرطبة ، المسمى بالنهر الكبير ، والثانى هو النهر الابيض الذى يمر بمرسية . الروض المعطار . الحلل السندسية : 116/1 .

41 — Jaen — مدينة فى سفح جبل عال ، بينها وبين غرناطة 97 كم ، وكانت قاعدة كورة البشارات التى كانت تشتمل على ما يقرب من ستمائة قرية . الروض المعطار . الحلل السندسية : 127/1 128 مجلة البينة : 26 .

42 — فى د : محلقة .

43 — فى د : مدة اشهر .

فى أمرهما الفقهاء ، فوجب الحكم على ابن رشيق ، فأمر يوسف بن تاشفين بالقبض عليه ، واسلامه فى يد ابن عباد ، ونهاه عن قتله ، فثقفه ابن عباد ، فهرب للحين أصحاب ابن رشيق وقرابته ، وجميع محلته الى مرسية ، وانتزوا بها ، ومنعوا الميرة عن المحلة ، فاختلت أمورها ، ووقع الغلاء بها ، وارتفع السعر فيها ، فضاقت بالناس الاحوال .

وفى أثناء ذلك استصرخ أهل الحصن سلطانهم ، فأخذ فى الحشد ، ويمم الحصن فى أمم لا تحصى ، فاقتضى رأى يوسف بن تاشفين التوسعة على الحصن والتأهب للقائه ، فتأخر بمحلته الى برشانة (44) وهى موضع الماء والثمر ، وظهر له أن الاذفنش اذا وصل ، فغايته تخليص قومه ، واخلاء الحصن ، ويـــزول ضرره ، ورأى أن الصواب اخلاء الطريق له .

ولما وصله اللعين وجد قوما جياعا ، لا يقدرون على امساك الحصن ، فأحرقه ، وأخرج من كان فيه من قومه ، وجرد يوسف بن تاشفين من عسكره جيشا ينيف على أربعة آلاف فـــارس ، وبعثه الى بلنسية ، وأردف بعده عسكرا عظيما قدم عليه محمد بن تاشفين الى جهة بلنسية ، وانصرف من هناك الى العدوة ، فتحرك الجميع بحركته وعادوا الى بلادهم ، وهذا هو تلخيص خبر جوازه الثانى الى الاندلـــس .

---

44 — فى ط . علوش : ترياسة ، وكذا فى ك ، وفى د : ترساية ، وفى ه : ترسالة ، ويبدو أن هذا كله تصحيف صوابه ما اثبتنا و purchana كانت من المدن المزدهرة ايام العرب ، واقعة علـــى نهر المنصورة وبينها وبين بسطة 48 كم . معيار الاختيار : 59 ، الروض المعطار . الحلل السندسية : 75/1 . مجلة البينة : 22 .

الجـــواز الثالـــث

كان جوازه الثالث فى سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ــ سببه :

أنه لما كان على حصن لييط نقل اليه كلام عن ملوك الاندلس ، أحفظه وأوغر صدره عليهم ، وهو الذى أزعجه الى العدوة .

ولما تبين لهم تغيره عليهم ، واعراضه عنهم ، نظر كل واحد منهم لنفسه بغاية عزمه ، فأول من جهر بذلك وتظاهر به ، وجد فيه المظفر عبد الله بن بلقين بن باديس ، واتصلت أنباؤه بيوسف بن تاشفين ، فاشتد غضبه ، وزاد حرجه عليه .

ولما احتل بالجزيرة الخضراء ، وافاه المعتمد ابن عباد ، فتلقاه بعادته من التعظيم ، واحتفل فى التضييف والتكريم .

وتوالت عليه الاخبار من الامير عبد الله بن بلقين بما يغيظه ويحقده ، فاستنزل من مالقة أخاه المستنصر تميم بن بلقين ، وتوجه الى غرناطة ، فلقيه المظفر عبد الله بن بلقين خارج الحضرة ، فسلم عليه ، وترجل اليه ، ودخل معه البلد ، وسلم اليه الأمر ، وأقام ينظر فى توطيد البلد ، وتمهيد الامور ، ثم احتمله هو وأخاه المستنصر تميما الى العدوة ، وأسكنهما بأغمات ، وقد استوفى الكلام فى هذا الامير عبد الله بن بلقين فى الكتاب الذى ألفه فى دولة قومه (45) .

وكان المعتمد ابن عباد ، والمتوكل ابن الافطس ، قد قدما عليه بغرناطة ، يهنئانه بما تهيأ له من

45 ــ نشر هذا الكتاب ليفى بروفنسال فى القاهرة ــ دار المعارف ــ باسم مذكرات الامير عبد الله . سنة 1955 م

ملك غرناطة ومالقة ، فلم يقبل عليهما ، وأعرض عنهما ، وانصرفا عنه الى بلادهما ، وأدرك ابن عباد الندم على استدعاء يوسف بن تاشفين الى الاندلس ، وقال لحليفه المتوكل ابن الافطس : والله لابد له أن يسقينا من الكأس التى سقى بها عبد الله بن بلقين .

ولما عاد ابن عباد الى اشبيلية ، أخذ فى بناء الاسوار ، وعمل القنطرة ، فقال له ابنه أبو الحسن عبيد الله الرشيد : ألم أقل لك يا أبت : يخرجنا هذا الصحراوى من بلادنا ، ان أنت أوردته علينا ؟ ! قال : يابنى لا ينجى حذر من قدر .

ولما كان فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة تحرك يوسف بن تاشفين الى سبتة ، لجواز عساكره اللمتونية الى الاندلس لمنازلة ملوك الطوائف ، وحصارهم فى بلادهم ، وفى أثناء مقامه بها ، أمر ببناء المسجد الجامع بسبتة ، والزيادة فيه ، فزاد فيه حتى أشرف على البحر ، وبنى البلاط الاعظم منه ، وأمر ببناء سور الميناء السفلى ، وشرع فى تجويزهم ، فقدم ابن عمه الامير سير بن أبى بكر على عسكر ، وأمره بمحاصرة ابن عباد باشبيلية ، وأوعز اليه أنه اذا فرغ من شأنه يتقدم لبلاد المتوكل ابن الافطس ، لشبونة وشنترين وغير ذلك مما كان بيده .

وقدم أبا عبد الله بن الحاج على عسكر ثان ، وأمره بمنازلة الفتح ، الملقب بالمأمون ، ولد المعتمد ابن عباد بقرطبة .

وقدم أبا زكريا بن واسينو على عسكر ثالث ، وأمره بمحاصرة المعتصم محمد بن معن بن صمادح بالمرية .

وقدم جؤذر (46) الحشمى (47) على عسكر رابع ، وأمره بمنازلة يزيد الراضى ، ولد المعتمد ابن عباد برندة (48) .

فجوز العساكر ، وانصرف كل فريق الى حيث أمرهم ، وأقام هو بسبتة مترقبا لأنبائهم . ومتشوفا لما يحدث عنهم ، فكان منهم بالاندلس ما هو مشهور ، من الاستيلاء على بلادهم ، والغلبة على ممالكهم ، ليس هذا موضع التقصى لأخباره ، لما قصد من ايجاز القول واختصاره ، ولم يبق بالاندلس ولاية ، الا ولاية بنى هود ، لان المستعين بالله أبا جعفر أحمد بن المؤتمن بالله أبى الحجاج يوسف بن المقتدر بالله أبى جعفر بن المستعين بالله سليمان بن محمد بن هود الجذامى ، أقام ببلاده بشرق الاندلس ، وكان يومئذ بيده عمالة الثغر الاعلى ، وهى سرقسطة (48) ، وتطيلة (49) ، وقلعة أيوب (50) ،

---

46 — فى د + ك : جدور .

47 — فى ك : الهاشمى .

48 — Ronda — مدينة واقعة الى الغرب من مالقة حيث تبعد عنها بنحو 96 كم ، وهى تبعد عن جبل طارق 108 كم ، وهى فى شماله ، فقد كانت من اقدم بلدان الاندلس ، واشهر مدن مملكة غرناطة . معيار الاختيار : 67 . الحل السندسية : 219/1 . البينة : 27 .

48 — Saragosa — هى الآن من اشهر مدن اسبانية . انظرها فى الروض المعطار . الحلل السندسية : 78/1 — 79 ، 106 .

49 — Tudela — مدينة واقعة على وادى ابرة ، تبعد عن سرقسطة بنحو 82 كم . الروض المعطار . الحلل السندسية : 79/1 . البينة : 25 .

50 — Calatayud — مدينة تقع الى الشمال الشرقى من مدريد ، وتبعد عن سرقسطة بنحو 87 كم . الروض المعطار . الحلل السندسية : 104/1 — 105 . البينة : 33 .

ودروقـــة (51) ، ووشقـــة (52) ، وبربشتـــر (53) ، ولاردة (54) ، وأفراغة (55) ، وبلقى ؟ ، ومدينة سالم (56) ، ووادى الحجارة (57) ، وما والى ذلك كله ، فحصن بلاده ، وملك زمام رعيته ، فخيف أمره ، ولم تدخل عليه بسبب (ذلك) داخلة ، وكان مع ذلك يهادى أمير المسلمين ، ويكاتبه ، وقال له فى مكاتبته :

نحن بينكم وبين العدو سد لا يصل اليكم منه ضرر ، ومنا عين تطرف ، وقد قنعنا بمسالمتكم ، فاقنعوا منا بها ، الى ما نعينكم به من نفيس الذخائر ، ووجه اليه ابنه عماد الدولة أبا مروان عبد الملك .

---

51 — Daroca — احدى مدن شمال الاندلس ، تبعد عن قلعة ايوب بنحو 35 كم . الروض المعطار . الحلل السندسية : 27 . البينة : 27 .

52 — Huesca — كانت مدينة حصينة ، بينها وبين سرقسطة خمسون ميلا ، وتقع الى الشرق منها . الروض المعطار . الحلل السندسية : 106/1 ، 207 .

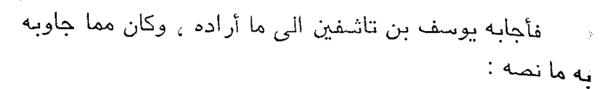
53 — Barbastra — عدها الحميرى فى روضه من أمهات مدن الثغر الاعلى .

54 — Lerida ، من مدن كتلونية المهمة ، تقع الى الشرق من مدينة وشقة ، تبعد عن سرقسطة بنحو 160 كم ، وعن برشلونة بنحو 144 كم . الروض المعطار . الحلل السندسية : 106/1 — 107 . البينة : 29 .

55 — Fraguas — تقع الى الغرب من لاردة ، بينهما ثمانية عشر ميلا . الحلل السندسية : 1 — 106 .

56 — Medina celi - هى اليوم مدينة صغيرة بينها وبين مدريد 152 كم فى الشمال الشرقى 10 الروض المعطار — مادة وادى الحجارة — الحلل السندسية : 104/1 — 105 . البينة : 31 .

57 — Rio Henares شهر اولا باسم مدينة الفرج Guadalajara القائمة عليه ، نسبة الى احد رؤساء البرابرة واسمه فرج المصمودى ، لكن غلب عليها من بعد اسم وادى الحجارة ، وهو الاسم الذى بقى لها الى الآن ، بينها وبين مدريد 57 كم . الروض المعطار الحلل السندسية : 103/1 . البينة : 31 .



فأجابه يوسف بن تاشفين الى ما أراده ، وكان مما جاوبه به ما نصه :

من أمير المسلمين ، وناصر الدين يوسف بن تاشفين ، الى المستعين بالله أحمد بن هـود ، أدام الله تأييـده ، من حضرة مراكش ، حيث تتلى آيات شرفك ، ومآثر سلفك ، ونحن نحمد الله بجميع المحامد ، ونستهديه أحسن الموارد ، ونسأله أتـم الفوائد ، وأنجح المقاصد ، ونصلى على سيدنا ومولانا محمـد صلى الله عليه وسلم صفوة أوليائه ، وخاتم أنبيائه ، وأما الذى عندنا — أيدك الله — لجانبك الكريم ، وبحرك الطامى ، ومجدك الصميم ، ومحلك المعلوم فود صريح ، وعقد — فى ذات الله تعالى — صحيح ، ووردنا نشأة السيادة والنبل والنباهة والفضل ، أبو مروان عبد الملك ، ابنك ولادة وتنسبا ، وابننا ودادا وتقربا ، زاد الله به عينك قرة ، ونفسك مسرة ، ومعه خاصتك الوزيران : أبو الاصبغ ، وأبو عامر ، أكرمهما الله بتقواه ، وكلا وفيناء حق نصابه ، وآتيناه بره من بابه ، وأديا الينا كتابك الجليل الخطير المقبول المبرور ، فوقفنا منه على وجه شخوصهما ، وأصغينا فى تفصيل جملته الى تخليصهما ، فألقينا اليهما مراجعة فى ذلك ما لقنوه ، وسفرنا لهما عـن وجه قصدنا فيـه حتى استبانوه ، وجملته الوفاق ، وجماعه الانتظام فى سلك ما يرضى الله تعالى والاتساق ، ان شاء الله تعالى ، والسلام .

فأقام ابن هود رضى البال ، يهدد النصارى بالمسلمـين ، ويهدد المسلمين بالروم ، لكونه حائلا بينهم وبين بلاد الافرنج ،

والاردمانيين (58) ، وقد كان الافرنج قبل ذلك بأعوام قريبة العهد خرجوا من الارض الكبيرة (59) الى الاندلس . فى جموع كثيرة ليس لها حد ، ولا يحصى لها عد ، فانتشروا على ثغور سرقسطة ، وأثخنوا وقتلوا وسبوا ، وتغلبوا على مدينة بربشتر عنوة ، وقتلوا فيها نحو أربعين ألفا ما بين فارس وراجل ، وسبوا النساء والاولاد ، فاسترجعها من أيديهم المقتدر بالله ابن هود ، ودخل عليهم عنوة ، ولم ينج من أهلها الا يسير ، ويذكر أنه تألف عند المقتدر فى استفتاحها آلاف من الرماة بالقسى العقارة (60) .

قال البكرى : دخل منها سرقسطة نحو خمس آلاف سبية ، ومن الخيل والدروع ما لا يحصى ، فشاع لابن هود بهذا الفتح الذى اتفق على يده صيت بعيد (61) .

وكان يتحف أمير المسلمين يوسف بن تاشفين . ويهاديه مما تحصل بيده من نفيس الذخائر واليواقيت (62) . والجواهر ، ورفيع الدنانير ، تصير اليه ذلك من اقبال الدولة ، أبى الحسن ، على بن الموفق بالله ، أبى الحسين على بن مجاهد العامرى ، صاحب دانية ، وأعمالها ، ظفر بها لما تغلب على دانية ، وأخرجه عنها .

---

58 — اى النورمانديين .

59 — اى من فرنسة .

60 — نوع من الاقواس الكبيرة ، التى شاع استخدامها فى الغرب ، وتميزت ببعد مداها ، وكانت تستخدم فى وضعية الجثو ، من قبل جنود اقوياء البنية .

61 — انظر قسم الاندلس واوربة من جغرافية البكرى — ط . بيروت : 92 — 95 ولمزيد من التفاصيل . انظر الروض المعطار — مادة بربشتر — .

62 — فى ك : والياقوت .

واتصل اليها على بن مجاهد من الشام ، ذلك أن الشـــام كانت بها مجاعة كبيرة ، ومسغبة شديدة ، وكانت دانية وشرق الاندلس كثيرة الخصب (63) ، فبعث ابن الموفق من دانية الى الشام ، مركبا محشوا بالزرع (64) ، فعاد اليه مملوءا ياقوتـــا وجوهرا ودنانير ، فلما تغلب المقتدر على عمالة ابن الموفق ، تحصل بيده ما ذكر ، واستولى عليه ، فتحصل عنده من ذلك ما لم يكن عند غيره من ملوك الاندلـــس ، وهذا هو تلخيص الخبر فى الجواز الثالث الى الاندلس بحول الله وقوته .

الجـــواز الرابـــع

كان جوازه الرابع اليها سنة ست وتسعين وأربعمائة ، برسم التجول فى الاندلس، والنظر فى مصالحها، وكان معه ابناه الاميران . أبو طاهر تميم ، وأبو الحسن على ، المتولى بعده ، وكان أبو الحسن على أصغر سنا ، فقال فيه أحد الشعراء الاندلسيين كلاما نبه فيه على مجده وشرفه :

وان كـــان فى الاسنـــان يحسب ثانيـــا

عـــلى فـــفى العليـــاء يحســـب أولا

---

63 ــ فى ك : فكان يبعث الى الشام بسفن مشحونة بالزرع ، فتعود اليه بكل ذخيرة ، وتحف خطيرة ، فتحصل له عنده من ذلك ما لم . . . . »
ويبدو ان هذا حدث عندما كانت بلاد الشام ، خاصــة تسمها الجنوبى ، تعيش تحت وطأة هجرة التركمان ، والفتح السلجوقى ، ولتفاصيل ذلك ، انظر كتاب مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ــ ط . ثانية ــ تأليف د . سهيل زكار ، ص : 65 ــ 220 .

64 ــ اى بأنواع الحبوب من قمح وسواه ، وهذا اصطلاح ساد فى الغرب الاســـلامى .

كذلكـــــم الايـــدى ســـــواء بنانهـــا
وتختـــــص فيهـــن الخنـــاصر بالحـــلا

ولما جال فى بلادها ، وتطوف على أقطارها ؛ شبهها بعقـاب رأسه طليطلة ، ومنقاره قلعة رباح ، وصدره جيان ، ومخالبه غرناطة ، وجناحه الايمن بلاد الغرب ، وجناحه الايسر بـــلاد الشرق .

قال كاتب هذا : ومن كيفية وضع هذه البلاد ، وتمثلها فى الصقر يبدو بيان هذا التشبيه الذى هو راجع الى سياسة أمرها ، ومبنى على اختبار حالهـــا .

ولما كان فى سنة ست (65) وتسعين وأربعمائة ولى عهده لابنه الامير أبى الحسن ، وكتب عنه ولاية العهد لابنه المذكور الوزير الفقيه أبو محمد بن عبد الغفور (66) ، وكان رحمه الله علم بلاغة به يهتدى ، وامام شرف قدمه العلم والندى ، وعاصب مجد هو الغاية والهدى ، ونص العهد :

الحمد لله الذى رحم عباده بالاستخلاف ، وجعل الامامة سبب الائتلاف ، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الكريـــم ، الذى ألف القلوب لمتنافرة ، وأذل لتواضعه عزة الملوك الجبابرة .

أما بعد فان أمير المسلمين،وناصر الدين،أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ، لما استرعاه الله على كثير من عباده المؤمنين ، خاف أن

65 — فى الاصيل : خمس ، وهو خطأ صوابه ما اثبتناه من خلال سياق الخبر ، ومن القرطاس : 156 ، ويلاحظ انه الم هنا بجميع الاصول الخطية اضطراب شديد ؛ ووقع فيها سقط ، وتقديم وتأخير فى سياق الروايات .

66 — هو من رجال قلائد العقيان ، انظر ص : 182 من ط . باريس .

يسأله الله غدا عما استرعاه : كيف تركه هملا لم يستنب فيه سواه ، وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظيمة ، وجعلها من أوكد الاشياء الكريمة ، كيف وفى عظائم الامور ، ومصلحة الخواص والجمهور .

وان أمير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة ، وخصه الله به من النظر فى هذه الامور الدينية الشريفة ، قد ماز عوالى رماحه (67) ، وأحد سلاحه ، فوجد ابنه الامير الاجل أبا الحسن أكثرها ارتياحا الى المعالى واهتزازا ، وأكرمها سجية ، وأنفسها اعتزازا ، فاستنابه فيما استرعى ، ودعاه لما كان اليه دعى ، بعد استشارة أهل الرأى على القرب والنأى ، فرضوه لما رضيه ، واصطفوه لما اصطفاه ، ورأوه أهلا أن يسترعى فيما استرعاه ، فأحضره مشترطا عليه الشروط الجامعة ، بينها وبين المشروط ، فقبل ورضى ، وأجاب حين دعى بعد استخارة الله الذى بيده الخيرة والاستعانة بحول الله ، الذى من آمن به شكره(68) .

وبعد ذلك مواعظ ووصية بلغت من النصيحة مرامى قصية ، يقول فى خاتمة شروطها ، ووثيق ربوطها : « كتب شهادته على على النائب والمستنيب ، من رضى امامتهما على البعيد والقريب ،

67 — استعار الكاتب الفكرة من خطبة الحجاج المشهورة ، ومن الملاحظ ان جميع الاصول الخطية ، قد صحفت هذه الفقرة بشكل كبير ، لكن احتفاظ بعض النسخ برسم للكلمات قريب مكن من التصحيح .

68 — اورد ابن الخطيب فى الاحاطة : 518/2 نصا آخر لولاية العهد ، كتبه محمد بن سليمان — المعروف بابن القصيرة — بقرطبة وهو مؤرخ بذى الحجة سنة 496 هـ ؛ ويمكن القول — نظرا للاختلاف فى البقعة والتاريخ ، والكاتب ؛ جاء هذا الثانى تأكيدا للاول .

وعلم علما يقينيا بأوصاف هذا الترتيب » بحضرة مراكش عام خمس وتسعين وأربعمائة .

وكان من الشروط فى تقديمه للعهد التى اشترطها عليه أبوه ترتيب سبعة عشر ألف فارس بالاندلس ، موزعة على أقطار معلومة ، يكون منها باشبيلية سبعة آلاف فارس ، وبقرطبة ألف فارس ، وبغرناطة ألف فارس ، وفى الشرق أربعة آلاف فارس ، وباقى العدد على ثغور المسلمين للذب والمرابطة فى الحصون المصاقبة للعدو (69) .

وفى جوازه هذا أعمل السير على مدينة اليسانة (70) ، وهى مدينة منيعة ، سورها من أعظم الاسوار ، انفرد بسكناها اليهود ، وكان سبب اجتيازه عليها ، أن رجلا من فقهاء قرطبة ، وجد مجلدا من تأليف ابن مسرة الجبلى القرطبى ، أخرج فيه حديثا رفعه الى النبى صلى الله عليه وسلم : أن اليهود ألزمت نفسها أنها اذا جاءت الخمسمائة عام من بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يجئهم نبى منهم على ما زعموا ، فان الاسلام لازم لهم ، لانهم وجدوا فى التوراة قول الله تعالى لموسى عليه السلام : ان النبى الرسول الذى معناه محمد ، لابد من ظهور الحق على يده ، ونوره متصل باتصال الساعة ، فزعمت اليهود

---

69 — فى د : الملاصقة .

70 — Lucina — مدينة تبعد عن قرطبة اربعين ميلا ، كان يسكن فى جوفها اليهود ، وفى ربضها بعض المسلمين ، وفى حين لم يكن على الربض سور ، كانت المدينة متحصنة بسور قوى ، ويطوف بها من كل ناحية حفير عميق القعر ، وكان يهودها اكثر ثروة من سائر يهود الاندلس . الحلل السندسية : 74/1 ، 131 — 132 .

أنه منهم ، وأنه ان لم يجىء الى رأس الخمسمائة عام ، والا فهو هـذا .

فرفع هذا الفقيه القرطبـي الامر الى أمير المسلمـين ، فاجتاز الى مدينتهم ليرى ما يصنع فيهم ، فيذكر أنه استخلص منهم جملة مال بسبب ذلك . وأن قاضى الجماعة أبا عبد الله محمد بن على بن حمد بن التغلبى أجرى مسألتهم معه ، علـى وجه تركهم ، ففعل .

ومما ينظر الى قريب من هذا المعنى ، ما حكى عن أحد عمال البحرين ، أنه لما وليها ، جمع اليهود فى سائر عمالته ، فقـال لهم : ما تقولون فى عيسى ابن مريم ، فقالوا : قتلناه وصلبناه ، قال : فأديتم ديته ؟ قالوا : لا والله ، فقال والله لا تخرجون حتى تؤدوا ديته ، فأغرمهم عشرة آلاف دينار ، وهذا الذى بلغنا من خبرهم ، واقتضاء أمرهم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليما .

والى هنا انتهى جوازه الرابع .

وأشير الى شىء من سيرته ، وأورد على جهة الاختصار نبذة من خبره ، ثم أعود الى التعريف بذكر ولده وولى عهده ، وما جرى من الحوادث من بعده ، ومساق طرف من أحوال مراكش وأخبارها ، فى مدة حصارها ، ان شاء الله .

سيرة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين

كان رجلا فاضلا ، خيرا ، زكيا ، فطنـا ، حاذقا ، نبيبا ،

زاهدا ، يأكل من عمل يده ، عزيز النفس ، ينيب الى الخير والصلاح ، كثير الخوف من الله عز وجل ، وكان أكبر عقابه الاعتقال الطويل ، وكان يفضل الفقهاء ، ويعظم العلماء ، ويصرف الامور اليهم ، ويأخذ فيها برأيهم ، ويقضى على نفسه بفتياهم .

أقامت بلاد الاندلس فى مدته سعيدة حميدة ، فى رفاهية عيش ، وعلى أحسن حال ، لم تزل موفورة محفوظة الى حين وفاته رحمه الله ، وكان الجهاد انقطع بها منذ تسع وسبعين سنة ، من مدة آل عامر الى حين دخوله اليها ، قدم أشياخ المرابطين فيها ، وكانوا أقواما ربتهم الصحراء ، نيتهم صالحة لم تفسدها الحضارة ، ولا مخالطة الاسافل .

قال ابن اليسع : وكان ترتيبهم فى الاندلس ، أنهم لم يزيدوا فارسا على خمسة دنانير للشهر شيئا ، مع نفقته وعلف فرسه ، فمن ظهرت نجدته واعانته وشجاعته ، أكرموه بولاية موضع ينتفع بفوائده ، وتركوا الثغور المواجهة لبلاد العدو فى حكم الاندلسيين ، لكونهم أخبر بأحوالها ، وأدرى بلقاء العدو وشن الغارات ، ولم يمكنوا من ولايتها أحدا سواهم ، مع الاحسان اليهم ، وكانوا متى ما وصلتهم خيل من العدوة ، بعثوا بها الى أهل الثغــور .

فلما قربت وفاته ، أوصى ابنه وولى العهد بعده أبا الحسن عليا بثلاث وصايا : الوصية الاولى : ألا يهيج أهل جبل درن (71)؛

71 ــ اى الاطلـــس الكبير .

ومن من ورائه من المصامدة وأهل القبلة (72) ، الثانية : أن يهادن بنى هود بالاندلس ، وأن يتركيم حائلين بينه وبين الروم ، الثالثة : أن يقبل من محسن أهل قرطبة . ويتجاوز عن مسيئهم .

وقد مات فى مستهل شهر محرم (73) سنة خمسمائة ، ودفن بقصره بحضرة مراكش،وحضر موته ابناه : الامير أبو الطاهر تميم، وأبو الحسن على ، مع من حضر من عترته الصنهاجية ، وأسرته اللمتونية ، قبض وهو على أوله فى العدل والجد فى نصر الدين ، واظهار الكلمة وعضد الاسلام ، رحمة الله عليه .

قال محمد بن الخلف فى البيان الواضح : ومما سلى النفوس كل التسلية ، وأطفأ نار الرزية ، ما كان من نظره الجميل ، ورأيه الاصيل ، من تولية الامر فى حياته لابنه الامير أبى الحسن ، ذى العقل الرصين ، والرأى الحسن ، قدس الله روحهما ، وبرد ضريحهما .

---

72 — اى اهل جنوب الغرب ، وهو اصطلاح شامى ، جلب الى المغرب وطبق فيه ، ذلك ان قبلة اهل الشام الى الجنوب .

73 — فى ك : شهر ربيع الاول .

أمير المسلمين على بن يوسف

كنيتـــه : أبو الحســـن .

بنوه : تاشفـــين المولى بعده ، وأبوبكر ويدعى بيكور ، وكان ذا حدة ونجدة ، سجنه أبوه مكبولا بالجزيرة الخضراء ، الى أن مات والده ، وهو ابن ست عشرة سنة ، وأبو حفص عمر الكبير ، وابراهيم الذى حج ، واسحاق ، وتميم الذى ثار علـــى ابن أخيه ابراهيم ، وقتل فى أوانه ، وداود ، وعمر الصغير ، وهو أصغرهم سنا ، أمه رومية ، تسمى برياض الحسن .

ووزراؤه: ينتيان بن عمر ، ثم بعد ذلك فى آخر مدتـــه استوزر اسحاق بن ينتيان بن عمر بن ينتيان .

ولما بلغ سنة الثامنة عشرة ، وكان يتوقد ذكاءا ونبلا وفهما ، فأعجب به (أبوه) اعجابا كثيرا ، وجعل له النظر فى المظالـــم والشكايات ، فانتفع به الناس فى جميع أمورهم ، وكافة شؤونهم ، وكان فى طبعه ومولده مثل كاهن ، يأتى بعجائب الاخبار .

ولما ولى على بن يوسف بعد أبيه اضطلع بالامور أحسن الاضطلاع ، وقام أحمد قيام ، وكان يقصد مقاصد العز فى طرق المعالى ، ويحب الاشراف ، ويقلد العلماء ، ويؤثر الفضلاء ، وكان كثير الصدقة ، عظيم البر ، جزيل الصلة ، وألبسه الله المهابة ، وقذف له فى القلوب المحبة ، فاجتمعت عليه الامة ، واتفقـــت الكلمة ، وبايعه أخوه الامير أبو الطاهر تميم ، وكان أكبـــر سنا منه ، وهو أول من استعمل الروم بالمغرب ، وأركبهـــم

وقدمهم على جباية المغارم ، وكان زكيا فقيها ، مكرما لاهل العلم ، يقلد الامور الفقهاء .

وغزا بنفسه بلاد الروم ، فخلا بسببه كثير من أحواز طليطلة ، وحاصر مدينة طلبيرة (75) وجاز الى الاندلس فى مدته ومدة أبيه ، فانه جاز اليها فى خلافته (75) أربع مرات .

الجواز الاول

كان جوازه الاول سنة خمسمائة ، لما ولى الامر بعد أبيه ، ليتفقد حال الاندلس ، وليسد خللها ، فاحتل بالجزيرة الخضراء ، وبادر اليه قضاة الاندلس وفقهاؤها ، ورؤساؤها ، وزعماؤها ، وأدباؤها ، وشعراؤها فأجزل لهم العطاء (67) . وقضى لكل ذى أرب أربه .

الجواز الثانى

فى سنة ثلاث وخمسمائة برسم الجهاد ، ونصر الملة ، واعزاز الكلمة ، فقصد طليطلة ، ونزل على بابها ، وحاز المنية المشهورة بخارجها ، وانتشرت جيوشه على تلك الاقطار ، ودوخ ، بلاد المشركين ، فلاذوا بالفرار الى المعاقل ، واعتصموا بالحصون المنيعة ، ونزل على طلبيرة ، وافتتحها عنوة ، ولم يعهد مثل

---

74 — Talavera de La Reina ، هى على نهر تاجة فى جنوبى غرب مدريد ، وكانت فى غاية الحصانة ، وهى تبعد بنحو 85 كم عن طليطلة . الروض المعطار . الحلل السندسية : 104/1 . البينة : 28 .

75 — كذا مجازا ، وكان الاحسن أن يقال : ولايته . او امارته .

76 — فى ك + د : العطايا .

الغزوة ، قوة وظهورا ، وعدة ووفورا .

الجـــواز الثالـــث

فى سنة احدى عشر وخمسمائة ، افتتـــح فيها مدينـــة قلمرية (77) ، ودوخ بلاد الشرك بجيوش لا تحصى ، وكان أثره بها عظيما .

الجـــواز الرابـــع

فى سنة خمس عشر وخمسمائة للحادث الواقع بقرطبة ، وذلك أن أهل قرطبة كان قدم عليها الامير أبو يحيى بن رواد ، فحدث بينه وبين أهلها ما أوجب قيامهم عليه ، وحدث بـــين أهلها وبين من كان فيها من المرابطين فتنة كبيرة ، ونهبوا دورهم وقصورهم ، فبلغ ذلك على بن يوسف بن تاشفين ، فجند الجنود ، وحشد صنهاجة ، وزناتة ، والمصامدة ، وأخلاط البربر ، وجـــاز الى الاندلس فى عسكر حفيل لم يجتمع مثله للمرابطين قبلـــه ، فاحتل بخارج قرطبة ، فغلقوا أبوابهم ، ودربوا مواضع مـــن حاراتهم ، واستعدوا لقتاله ، واستفتوا علماءهم فأفتوهم : أنه متى عرض عليه الحق ، وبين له السبب فيما جرى بين المرابطين وأهل قرطبة ، وأنه لم يكن بداءة منهم ، وانما كان ذبا عن الحرم ، والدماء ، والاموال ، والبادىء أظلم ، فان تمادى على اتباع

77 — Coimbra — مدينة فى البرتغال ، هـــى الآن قاعدة احـــدى المقاطعات ، وكتت قبلا عاصمة البرتغال ثم تم التحول عنها الى لشبونة ، وهى فى شمالها وتبعد عنها 224 كم . الروض المعطار . الحلل السندسية : 1/91 — 92 . البينة : 33 .

هواه ، والميل مع أغراض المفسدين ، وجب القتال على الحرم ، والدفاع (78) عن الحوزة ، حتى يراجع الله به .

ولما طال مقامه عليها ، تردد اليه وجوه قرطبة وأعيانها ، وذكروه بوصية أبيه أمير المسلمين : « أن يقبل من محسن أهل قرطبة ، ويتجاوز عن مسيئهم » ، فوقع الاتفاق على أن يؤدوا له مالا عوضا عما نهب للمرابطين ، فرضى ورضوا .

وبينما هو فى ذلك اذ بلغه ظهور المهدى بالسوس الاقصى ، فعاد الى العدوة حسبما يأتى ذكره .

وفى سنة اثنى عشرة وخمسمائة وصله كتاب من الخليفة العباسى ببغداد ونصه .

من عبد الله أبى العباس المستظهر بالله ، أمير المؤمنين ، الى معز الدولة العباسية ، وزعيم جيوشها المغربية ، على بن يوسف بن تاشفين أحسن الله توفيقه ، أما بعد :

فالحمد لله مقدم على كل مقال ، وتال كل فعال ، وهو ذو المن والافضال ، الكبير المتعال ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد المؤيد بالتنزيل ، الذى كشف عن الامة الغمة ، واستنقذ من الضلالة الامة ، وحمى به من المحارم ما كان مباحا ، واقتدح به من القلوب زنادا أورى بعدما كان شحاحا . وألبس الدين بعد ما كان بالعراء من البسيطة جناحا ، وعلى أزواجه وذريته ما أعقب مساء صباحا ، وخص العباس بن عبد المطلب عم النبوة ، ووارث الخلافة ، وشقيق الابوة ، الميمون ، الظاهر ، الطاهر الاوائل

78 — فى د + ك : والدفع .

والاواخر بالصلاة المستهلة العهاد ، المتصلة الامداد ، ومواهب الله على أمير المؤمنين حبائس ، ومنائحه لديه كوامل نفائس ، وجناب الاسلام مريع ، وباع الحق وسيع ، ورياض العدل أريضة، وعيون الحق عريضة ، ونظره للرعايا على ما يقتضيه قصدها ومرادها ؛ ويفل عنهم شبا الايام اذا رهف حدها ، والنصر لرايته (79) الف والظفر لجيوشه حلف ، وأعداؤه للسيوف حصائد ، وللحتوف طرائد ، وشكره لله تعالى ما أولاه شكر ، مؤذن بالمزيد ، وشاهد بصنع لا يبيد .

وعرض بحضرة أمير المؤمنين كتابك ، الموضح لاخلاص السريرة ، المطبوعة بطبائع الدين ، المعربة عن تمسكك بطاعته بحبل الله المتين ، الهاطلة سحائبها من سماء سيرتك ، المضيئة مصابيحها من اخلاص طريقتك ، واما ما أنهيته من توفير الاجناد ، ومثابرتك على الجهاد ، لدفع أدناس الكفرة فيما يليك من البلاد ، فانك وطائفتك من حزب الله « وحزب الله هم الغالبون (80) » ، فاتخذ التقوى عمادك ، والحق منارك ، وكتاب الله وسنة رسوله شعارك ، وتجرد للدفاع عن الاسلام والمسلمين ، وحطم صعادك فى نحور أعداء الله الكافرين ، وأعلن بالدعاء لامير المؤمنين على على المنابر ، تكن الظافر بالاعداء ، والظاهر ، والسلام عليك ، وعلى من قبلك من أهل الطاعة ، سلام يهديهم الى المقام المحمود ، ويكنفهم بظل الرحمة الممدود ، ورحمة الله تعالى ، وبركاته .

قال : والمكتوب عنه هذا الكتاب هو الخليفة الثامن والعشرون

---

79 — فى ك : الراياته .
80 — المائدة : 56 .

من خلفاء بنى العباس ، وهو أبو العباس أحمد المستظهر بالله بن عبد الله المقتدى بأمر الله « بن الذخيرة محمد » بن أبى القاسم القائم بأمر الله بن القادر بالله أبى العباس أحمد بن الامير اسحق ، بن الامام المقتدر أبى الفضل جعفر بن الامام المتوكل على الله أبى الفضل جعفر ، بن الامام المعتصم بالله أبى اسحق محمد ، بن الامام الرشيد بالله أبى جعفر هارون ، بن الامام المهدى بالله أبى عبد الله محمد ، بن الامام المنصور بالله أبى جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، رضى الله عنهم أجمعين ، ولى الخلافة بعد أبيه ، وبويع له بسر من رأى .

وفى خلافته استحوذ الروم على بيت المقدس ، وبعض (81) بلاد الشام ، ومكث بأيديهم احدى وتسعين سنة ، الى أن استخلصه من أيديهم حفيده الامام الناصر لدين الله أبى العباس أحمد بن الامام المستنجد بالله ، أبى المظفر يوسف بن الامام المستظهر بالله أبى العباس ، وذلك على يد عامله على مصر ، السلطان صلاح الدين أبى المظفر يوسف بن أيوب ، رحمه الله .

وكان استرجاعه من أيديهم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .

قال كاتب هذا : أشرت الى طرف من التعريف بهذا الخليفة العباسى المخاطب بالخطاب المرسوم قبل أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ، فأعود الى ما كنت بسبيله من ايراد الخبر المقصود ان شاء تعالى .

---

81 — فى د : واكثر ، وفى هذا الخبر اشارة الى قيام الحملة الصليبية الاولى ، ودخولها الشام سنة 492 هـ / 1098 م .

ولما كان فى سنة عشرين وخمسمائة ، شرع أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين فى تسوير حضرة مراكش ، وبناء جامعها ومنارها ، وجمع الصناع والفعلة على ذلك ، فجمع كل ما صنع من الدور فى مدة ثمانية أشهر ، على عظم ساحتها ، واتساع دورها .

يذكر أنه أنفق فى بناء السور وحده سبعين ألف دينار من الذهب ، وكان الذى أشار بتسوير مراكش القاضى أبو الوليد بن رشد (82) ، وسبب تسويرها أنه لما ظهر أمر المهدى ، استفتى فقهاء العدوة والاندلس ، منهم قاضى الجماعة بقرطبة أبو الوليد بن رشد ، فى بناء سور على موضعه ومنزله ، فأفتوه بالتحصين على نفسه وعلى الناس الساكنين معه .

وكان سبب جوازه الى حضرة مراكش ليتكلم مع أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين فى حال الاندلس ، ويبين له ما أصيب به المسلمون من النصارى المعاهدين بها ، وما جروه اليها ، وجنوه عليها من استدعاء ابن ردمير ، وتقويته على المسلمين وامداده ، وما فى ذلك من نقض العهد ، والخروج عن الذمة .

فتلقاه أمير المسلمين على بن يوسف بالمبرة والكرامة ، وتلقى قصده بالقبول ، واستفتاه فأفتاه بتغريبهم واجلائهم عن أوطانهم ، وهو أخف ما يؤخذ به فى عقابهم ، ونفذ عهده الى جميع بلاد الاندلس بازعاج المعاهدين الى ناحية مكناسة وسلا

82 — يعرف عادة بابن رشد الجد ؛ وكان من كبار فقهاء عصره ، وحينما قيل له الجد ، اريد بذلك جد ابن رشد الفيلسوف المعروف بالحفيد .

وغيرها من بلاد العدوة ، فأنكرتهم الاهواء ، وأكلتهم الطرق .

وفى هذه السنة ، سنة تسع عشرة وخمسمائة ، خرج الطاغية ابن رذمير الى بلاد المسلمين فى الاندلس . فتحركت له ريح الظهور ، وذلك أن النصارى المعاهدين بكورة غرناطة وغيرها خاطبوه من تلك الاقطار ، وتوالت عليه كتبهم ، وتواترت رسلهم ملحة فى الاستعداد ، مطمعة بدخول غرناطة ، وانه لما أبطأ عنهم وجهوا اليه سفرا يشتمل على اثنى عشر ألفا من أسماء أنجاد مقاتلتهم ، وأخبروه مع هذا أن من سموه هو ممن شهدت أعينهم لقرب مواضعهم ، وأن بالبعد منهم من يخفى أثره ؛ ويظهر عند وروده عليهم شخصه .

فاستثاروا طمعه ، وابتعثوا جشعه ؛ واستفزوه بأوصاف غرناطة ، ومالها من الفضائل على سائر البلاد ؛ وكثرة فوائدها من القمح والشعير ، والكتان ، وكثرة المرافق من الحرير والكروم والزيتون وأنواع الفواكه ، وكثرة العيون والانهار ، ومنعة قصبتها ، وانطباع رعيتها ، وتأتى أهل حاضرتها ، وأنها المباركة التى يملك بها غيرها ، وأنها سنام الاندلس عند الملوك فى تواريخها ، فرموا حتى أصابوا غرضهم ، فانتخب واحتشد ، وتهيأ فى أربعة آلاف فارس اختارها من بلاد أرغونة بتوابعهم ، وتعاقدوا وتحالفوا بالانجيل أنه لا يفر أحد منهم عن صاحبه ، فخرج عن سرقسطة فى منسلخ شعبان من هذه السنة ، واجتاز على بلنسية وبها الشيخ أبو محمد بدر بن ورقاء بجماعة من المرابطين ، وأقام بها يقاتلها مدة ، وفى أثناء ذلك وصله عدد وافر

من النصارى المعاهدين يكثرون سواده ، ويدلونه على الطريق ، وينبهون على المراشد التى تضر المسلمين وتنفعه ، واجتاز على جزيرة شقر (83) ، فقاتلها أياما ، خسر فيها ولم يربح ، ثم رحل منها الى دانية (84) ، وقاتلها ليلة عيد الفطر من هـذه السنة ، وشق بلاد الشرق مرحلة مرحلة ، ومنزلة منزلة ، وشن الغارة على كل قطر مربه ، واجتاز على فج شاطبة (85) ، حتى مرسية . ثم اجتاز بالمنصـورة (86) ، ثم صعد (87) الـى برشانة (88)، ثم تلوم (89) بوادى تاجلة (90) ثمانية أيام، ثم تحرك الى مدينة بسطة (91) ، فلحقه الطمع فيها لكونها فى بسيط من

---

83 — Jucar ، مدينة قائمة على نهر شقر ، وهى تبعد عن بلنسية ثمانية عشر ميلا . الروض المعطار . الحلل السندسية : 109/1 .

84 — من مدن شرق الاندلس ، على البحر الابيض المتوسط فى ناحية القنت ، وتبعد عنبا 99 كم شمالا . الروض المعطار . ذكر بلاد الاندلس ، لمؤلف مجهول ، مخطوطة الخزانة العامة فى الرباط ، رقم 85 ج ، ص : 64 . الحلل السندسية : 110/1 . البينة : 27 .

85 — Jativa ، من أشهر مدن الاندلس ، شهرت بصناعة الـورق الممتاز ، بينها وبين بلنسية 62 كم جنوبا . ذكـر بلاد الاندلـس : 67—68 . الروض المعطار . الحلل السندسية : 110/1 . البينة : 34 .

86 — Almanzora ، بلدة تحيط بها أراضى تسمى وادى المنصـورة ، ويشقها نهر له نفس الاسم ، والكل معدود من توابع ثغر المرية فى الجنوب الشرقى من الاندلس .

87 — فى ك : بالمنصف صاعدا الى ، وفى د + هـ : ثم انحدر الى .

88 — Purchina ، هى اليوم قرية صغيرة ، بينها وبين بسطة 48 كم ، ويمر بها وادى المنصورة ، وهى ليست من قرى اشبيلية كما ورد فى معجم البلدان . البينة : 22 .

89 — فى ك : ثـم حل .

90 — Tijola ، قرية صغيرة قريبة من برشانة ، واسمها كان يطلق اولا على النهر المسمى الآن بنهر المنصورة . البينة : 24

91 — Baza ، مدينة متوسطة ، تقع الى الشمال الشرقى من غرناطة ، وتبعد عنها بنحو 125 كم . ذكر بلاد الاندلس : 68 . معيار الاختيار : 60 . الروض المعطار . الحال السندسية : 126/1 . البينة : 24 .

الارض ، وأكثر حاراتها غير مسورة ، فلم يعنه الله عليها ، ثم توجه الى وادى آش (92) فى يوم الجمعة أول ذى القعدة ، وقاتل المدينة من جهة المقابر الى الاثنين ، وأقلع الى السند (93) فى يوم الثلاثاء ، وفيه كمن الكمائن ، ثم أقلع من السند يوم الاربعاء ، ونزل بقرية فنيانة (94) ، وقاتلها من غربها ، وأقام عليها نحو شهرين .

قال مصنف كتاب الانوار الجلية (95) : نزل يجيب النصارى المعاهدين بغرناطة فى استدعائه ، فافتضح تدبيرهم فى اجتلابه ، وهم أميرهم بثقافهم ، فأعياه ذلك ، وجعلوا يتسللون الى محلته على كل طريق ، وكان يومئذ على الاندلس أبو طاهر تميم بن يوسف ، وحاضرة سكناه آنذاك قاعدة غرناطة ، فأحدقت به جيوش المسلمين ، وأمده أخوه أمير المسلمين من العدوة بجيش وافر ، وصارت الجيوش كالدائرة على غرناطة ، وهى فى وسطها كالنقطة ، وتحرك ابن رذمير من وادى آش ، فنزل بقرية

---

92 — Gudix — مدينة تقع الى الشمال الشرقى من غرناطة ، وتبعد عنها بنحو 55 كم . معيار الاختيار : 61 . الروض المعطار : الحلل السندسية : 126/1 .

93 — ذكر ابو عبد الله المسناوى (ت : 1127 هـ) فى كتابه « نتيجة التحقيق فى بعض اهل النسب الوثيق » طبع على الحجر بفاس — الملزمة الاولى ، ص : 5 ، ان جد الاسرة التى ارخ لها كان مستوطنا بحصن القلهرة من سند وادى آش . انظر ايضا مشاهدات ابن الخطيب ، ط . الاسكندرية 1958 ، ص : 156 .

94 — ذكرها ابن الخطيب فى معيار الاختيار ، والحميرى فى روضه ، وهى قرية واقعة فى الجنوب الشرقى من مدينة وادى آش .

95 — هو ابوبكر الصيرفى ، من علماء غرناطة ايام المرابطين ، واسم كتابه « الانوار الجلية فى اخبار الدولة المرابطية » وهو الآن بحكم المفقود .

دجمة (96) ، وصلى الناس بغرناطة صلاة الخوف يوم عيد النحر من هذه السنة ، فى الاسلحة والاهبة . ولم يصل ابن رذمير الى غرناطة حتى كان معه خمسون ألفا ، ثم نزل بوادى فردش (97) فى يوم عيد الاضحى ، وأقلع منها الى المزوقة (98) ، ومنها برز الى غرناطة ، ونزل بقرية النبيل (99) ، وأقام بمحلته بضع عشر ليلة ، لم تسرح له سارحة بتوالى الامطار ، وكثرة الجليد ، الا أن المعاهدة كانت تجلب اليه الاقوات ، فأقلع وقد ارتفع طمعه عن المدينة ، فرحل على قرية مرسانة (1) الى بيش (2) ، ومنها الى السكة (3) ، حيث لحق أحواز قلعة يحصب (4) ، الى لك (5) ،

---

96 — Dietma — او رشمة ، من قرى غرناطة ، عند ابن الخطيب فى مقدمة الاحاطة ، وهى الآن مدينة تتوسط بين غرناطة ووادى آش .

97 — كذا ، ولعله تصحيف « فرتونة » الواقع فى منطقة قريبة من غرناطة ، وقد ذكره ابن الخطيب فى الاحاطة فى ترجمة اسماعيل بن فرج ، خامس ملوك بنى الاحمر فى غرناطة . من الجزء الاول .

98 — فى د : المزرقة ، وفى هـ : المزونة ، وفى ك : المررية ، ولم نهتد الى وجه الصواب فيها .

99 — Navac — قرية من قرى غرناطة ، ذكرها ابن الخطيب فى مقدمة الاحاطة .

1 — Maracena — قرية من قرى غرناطة ، موقعها فى الشمال الشرقى منها ، وقد ذكرها ابن الخطيب فى مقدمة الاحاطة .

2 — Beds — قرية من قرى غرناطة ، موقعها فى الشمال الغربى منها ، اوردها ابن الخطيب فى مقدمة الاحاطة .

3 — لم نهتد الى حقيقة هذا العلم ، وهو مذكور فى مقدمة الاحاطة حيث قال : السكة من احواز قلعة يحصب .

4 — Alcala la-Real قلعة شهيرة فى تاريخ الاندلس ، سكنها بنو سعيد الذين شهروا منذ عصر الموحدين ، موقها شمال غرب غرناطة . انظر اعمال الاعلام — ط . بيروت 1956 : 393/1 .

5 — كذا ، ويبدو أن تصحيفا أصاب هذا العلم تعذر الاهتداء الى وجه الصواب فيه ، مع الاشارة الى ان لكة ، ولك ، يقعان جغرافيا فى منطقة بعيدة عن منطقة الحدث الذى يؤرخ له المؤلف ، فلكه فى الجنوب الغربى من الاندلس ، وهناك كانت معركة فتح الاندلس على يد طارق ، ولك فى الشمال الغربى من الاندلس ، بأرض « جليقية » .

وبيانة (6) ، وأستجة (7) ، ثم نكب على قبرة (8) ، ولسانة (9) ، وجيوش المسلمين فى أذياله تكافحه فى أثناء ذلك مناوشة ، وظهروا عليه ، فتبعه الامير أبو طاهر الى أن اجتمعا على مقربة لسانة بأرنيسول (10) فطمعوا فيه ، وانتدبوا لقتاله أول النهار ، وكبسوه وأخذوا له جملة من الاخبية (11) ، ولما كان فى وقت الظهر تدرع ابن رذمير ، وتعبأ بناسه (12) للقتال ، وعقد عليهم أربعة ألوية ، وقسمهم على أربع فرق ، وحملوا على المسلمين بعد فشلهم وافتراقهم ، وسوء الرأى فى نزولهم ، فألفوهم على طمأنينة ، وحكم الله بأحكامه ، فكانت الوقيعة الشنيعة على المسلمين ، واستولى على محلتهم ، وانتقل منها الى جهة الساحل ، فشق الاقاليم والبشارات (13) ، وجاز على وادى متريل (14) المطل الحافات ، المنحصر المجاز ، ويقال انه لما اجتاز به قال بلغته لاحد زعمائه :

6 — Baena — مدينة بين قرطبة وغرناطة ، تبعد 60 كم عن شرق قرطبة . البينة : 24 .

7 — Ecija — مدينة فى جنوبى قرطبة ، بينهما 56 كم . البينة : 60 .

8 — Cabra — ذكرها الحميرى فى روضه ، واوردها ابن الخطيب فى مقدمة الاحاطة ، وكانت من حصون غرناطة الدفاعية ، فى الشمال الغربى منها .

9 — Lucena — وتكتب احيانا — اللسانة — اوردها ابن الخطيب فى مقدمة الاحاطة على انها من حصون غرناطة الدفاعية فى الشمال الغربى منها .

10 — Arensol — ورد هذا العلم فى مقدمة الاحاطة على انه فحص « مرج » من فحوص غرناطة فى الجنوب منها .

11 — فى د : واستولوا على جملة من مضاربه واخبيته .

12 — فى ك : وتعبأ بناسه للقتال ، وفى د : وتهيأ بناسه للقتال .

13 — (Pastur) — اصل هذه الكلمة من لفظة لاتينية معناها المراعى وكانت تطلق عند العرب على الجبال التى تمتد جنوب Alpajarras جبل الثلج . البينة : 24 .

14 — Motril — بلدة فى الجنوب ، وهى من توابع مالقة ، حيث يوجد هناك النهر الاحمر ، ووادى موتريل او متريل .

أي قبر هذا لو ألفينا من يرد علينا التراب ؟ ! ثم عرج يمنة حتى انتهى الى بحر بلش (15) ، وأنشأ بها جفنا صغيرا صيد به له الحوت ، كأنه نذر وفى به ، أو أثر لمن يخلفه بعده ، ثم عاد الى غرناطة ، فاضطربت بها محلته بقرية دلر (16) ، ثم انتقل الى قرية همدان (17) ، وكان بينه وبين عساكر المسلمين مواقف عظيمة، ثم انتقل بعد يومين الى المرج ، فنزل بعين أضسه (18) ، وهو فى نهاية من كمال التعبئة ، وأخذ الحذر ، بحيث لا تصاب فيه فرصة ، ثم تحرك على البراجلات (19) ، ومنها الى اللقون (20) ، ومنها الى وادى آش ، وقد أصيب كثير من حاميته . وطوى المراحل الى الشرق ، فاجتاز على مرسية الى جوفى (21) شاطبة ، والعساكر فى كل ذلك تطأ أذياله ، والتناوش يتخطر به ، والوبال يسرع اليه حتى وصل الى بلاده ، وهو يفخر بما ناله فى سفره ، من

---

15 — Velej — بلش او فلش مالقة ، بلدة فى الجنوب تبعد عن مالقة بنحو ثلاثين كم من جهة الشرق ، وساحلها يعرف باسم بحر فلش ، وقد ذكرها ياقوت فى معجمه .

16 — Dilor ، قرية من قرى غرناطة ، موقعها الى الجنوب منها ، وقد ذكرها ابن الخطيب فى مقدمة الاحاطة .

17 — Al-Hemdin — ذكرها ابن الخطيب فى الاحاطة بين قرى غرناطة ، وهى الآن بلدة .

18 — فى ك + د : لطسة ؟ .

19 — كرر ابن الخطيب فى مقدمة الاحاطة ذكر كلمة « البراجلات » وذلك اثناء الحديث عن غرناطة واحوازها ، ويبدو من ذلك انها كانت مصطلحا معروفا ، عله معرب عن اللاتينية ، تقصد به الاراضى الصخرية المرتفعة مع السهوب المتحجرة فى شرقى البلاد وشمالها .

20 — كذا ، وجاء هذا الاسم فى الاحاطة بالصيغ التالية : الاقون ، اللقوق ، اللقوة ، فهو مثلا جاء فى : 469/2 باسم « حصن اللقوة » ؟ هذا ولم نهتد فى المتوفر من المصادر والمراجع الى ما يعين على ضبط اسم هذا الموقع مع تحديد مكانه وصفته .

21 — فى د + ك : جوف .

المسلمين ، وفتكه فى بلادهم ، وكثرة ما أسر وغنم ، مع أنه لم يفتح مكانا مسورا صغيرا ولا كبيرا . الا أنه أخلى ديار بادية الاندلس ، وعفا آثارها ، وكان مقامه فى بلاد المسلمين واردا وصادرا سنة كاملة وثلاثة أشهر (22) .

ولما بان للمسلمين من مكيدة جيرانهم النصارى المعاهدين ، ما جلت عنه هذه القضية ، أخذهم الارجاف ، وتوغرت لهم الصدور ، وتوجه الى مكائدهم الحزم ، فاحتسب القاضى أبو الوليد بن رشد الاجر ، وتجشم المجاز ، ولحق بالامير على بن يوسف بن تاشفين بحضرة مراكش ، فبين له الامر بالاندلس ، وما منيت به من النصارى المعاهدين ، وما جنوه عليها من استدعاء الروم ، وما فى ذلك من نقض العهد ، والخروج عن الذمة .

وأفتى بتغريبهم واجلائهم الى العدوة عن أوطانهم ، وهو أخف ما يؤخذ به من عقابهم ، فأخذ بقوله ، وأنفذ بذلك عهده ، وأزعج الى العدوة منهم عددا جما ، أنكرتهم الاهواء ، وأكلتهم الطرق ، وعند ذلك أفتى بالتسوير على مراكش ، حسبما تقدم ذلك .

ويرجع الحديث الى جهة مراكش ، وأن أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ، شرع فى جمادى الاولى سنة عشرين وخمسمائة فى تسوير حاضرة مراكش ، وبنى جامعها ومنارة ، وجمع الصناع والفعلة على ذلك ، فجاء كل ما صنع من أوابد الدنيا ،

---

22 ــ انظر كتاب بيوتات فاس ، ط . الرباط 1972 ، ص : 32 . . . .
الاحاطة : 114/1 . . . .

ابتناها فى مدة من ثمانية أشهر ، على عظم ساحتها ، واتساع دورها ، يذكر أنه أنفق فى بناء السور وحده سبعين ألف دينار من الذهب ، وكان الذى أشار عليه بتسوير مراكش القاضى أبو الوليد بن رشد حين ظهور المهدى عليه ببلاد المغرب (23) ، وسبب تسويرها أنه لما ظهر المهدى استفتى فقهاء العدوة والاندلس فى أمره ، ومنهم القاضى أبو الوليد بن رشد فى بناء سور على موضعه ومنزله ، فأفتوه بالتحصين على نفسه وعلى الناس الساكنين معه ، وكان توجه القاضى أبو الوليد بن رشد اليه لمراكش فى غرضين : أحدهما اخراج النصارى المعاهدين عن الاندلس بسبب ما صدر عنهم من الاعانة لابن رذمير ، واستدعائه حسبما تقدم قبل هذا ، والأخرى فى عزل أخيه الامير أبى طاهر تميم عن الاندلس ، وتقديم غيره .

ولما كان أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين بالعدوة ، فى حاضرة مراكش ، أشار عليه أهل دولته أن يطلب ملك بنى هود بشرق الاندلس ، وقالوا له : الشرع يدعوك أن تسعى فى أخذ تلك البلاد منهم ، لكونهم مسالمين للروم ، فأخذ برأيهم ، ووجه اليهم الامير أبابكر بن تيفلويت بعسكر من المرابطين .

ولما سمع ابن هود بقدومه ، تحصن ببلاده ، وكتب اليه كتابا بعثه اليه لمراكش ، من فصوله :

وقد كان المستعين بالله ، خاطب أباك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، رحمة الله عليه ، يسأله الدعة ، ويرغب فى

23 — معلومات مكررة .

الهدو (24) ، والاستعانة على العدو ، فأقام وأقمنا معه مريحين ؛ ومن تعب النفاق فرحين ، فنعمنا بنور الهداية الساطع الاشراق ، واغتنمنا الدعة والامن فى هذه الآفاق ، ثم دهمنا من جهتكم داهم أبدى صفحته ، ونسيم ـ بل عاصف ـ أهدى الينا نفحته ، ولا يمكننا تسليم ما بأيدينا اليكم ، فيتحكم فينا الاذلال ، ويتمكن فى محالنا الاستنقاص بالحقوق والاختلال ، ولم تتقدم منا اليكم اساءة جهرت عليكم بالقول ، ولا أشارت ، ولا أخلت بجنابكم ولا عدت ولا أضرت ، بل نفيض عليكم استمالتنا ، ونستعطفكم فى كل حال بمقالتنا ، وقد كان لكم فيما فعله أبوكم أمير المسلمين اسوة حسنة ، وأيام كانت بيننا وبينه مستحسنة فان يكن الله أراد أمرا أنفذه فى خلقه ، فلا راد لمشيئته ، ولا جائد عن بليته ، وسيعلم مبرم هذا الرأى عندكم سوء مغبته ، وعظيم هيئته (25) فى الفساد ورتبته ، والله حسيب من بغى ، وابتدأ بالتضريب بيننا وابتغى ، وحسبنا الله وكفى ، والسلام .

ولما وصل كتاب عماد الدولة أبى مروان عبد الملك بن هود ، ووقف عليه أمير المسلمين على بن يسف ، خاطب الامير أبابكر بن تيفلويت يأمره بالكف عن بلاده ، فوافاه الكتاب وقد أدخلته الرعية مدينة سرقسطة فى خبر يطول شرحه .

وقد كان المهدى ظهر عليه فى سنة أربع عشرة وخمسمائة ، وكان ابتداء ظهوره بمراكش ، وذلك أنه وصل من المشرق الى

24 ـ فى ك : العهد ، وفى د : الهدنة .
25 ـ فى د : مرتبته .

مراكش على حسب ما تجتبه القصص فى موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله .

قال ابن بجير (26) : دخل أبو عبد الله محمد بن تومرت ، الملقب بالمهدى ، المسجد الجامع بمراكش ، يوم جمعة ، وركع فى الصف الاول ، بمقربة من المنبر ، فقال له بعض سدنة الجامع : هذا موضع أمير المسلمين ، فقال له : « ان المساجد لله (27) » ، وقرأ الآيـــة .

فلما جاء أمير المسلمين على بن يوسف ليقعد فى موضعه ، قام له من حضر هنالك ، وبقى المهدى لم يقم ، فلما قضيـــت الصلاة ، بادر المهدى بالسلام عليه ، وقال له فى جملة كلامه : غير المنكر ببلادك ، لانك أنت المسؤول عن رعيتك ! فلم يجبه أمير المسلمين على بن يوسف .

ولما دخل الى قصره ، وجه اليه يسأله : ان كانت لك حاجة فتقضى (28) ؟ فقال : ليس لى حاجة ، وما قصدى الا تغييـــر المنكرات ، فعند ذلك أمر الفقهاء أن يتكلموا معه ، ويختبروا حاله ، وينظروا ما عنده من العلم ، وكان فى جملتهم أبو عبد الله مالك بن وهيب الاندلسى (29) ، فتكلم معهم (30) فى أمور كثيرة ،

---

26 — كذا فى الاصل ، وهو من مصادر ابن عذارى صاحب البيان المغرب ، ولم نهتد الى ترجمته .
27 — الجـــن : 18 .
28 — فى ك + د : ان كانت له حاجة تقضى له .
29 — فقيه فيلسوف ، انظر اخبار المهدى للبيذق — ط . الرباط 1971 ، ص : 28 .
30 — فى د : معه .

وناظرهم فى مسائل من العلم (31) لا يتسع ايرادها فى هـــذا المختصر .

ولما عادوا الى أمير المسلمين سألهم عما خبروه من حاله ، فقالوا له : يا أمير المسلمين ذلك رجل يفتن الناس ، والصواب امساكه ، ويحال بينه وبين الناس ، وقال له مالك بن وهيـب : أبقاك الله ، هذا الرجل اجعله فى بيت من حديد ، والا فستنفق عليه بيتا من ذهب .

وقال له بعض الفقهاء : أبقــاك الله ، هذا الرجل اجعـل عليه كبلا قبل يسمعك طبلا (32) ، وكان بالمجلس (33) — فى أشياخ المرابطين — وزيره ينتيان بن عمر ، فقال له : يا أمير المسلمين ، هذا وهن فى حق الملك ، أن تلتفت الى هذا الرجل الضعيف (34) ، فخلى سبيله ، وخرج المهـدى عند ذلك الى مدينة أغمــات ، فأقام بها يدرس العلم للناس ويعظهم الى أن أخرجه صاحب أغمات ، وغربه الى سوس الاقصى ، وذلك سنة خمس عشرة وخمسمائة (35) ، فتبعه الناس ، واجتمعت عليه البرابـــر ، يسألونه فى أمور دينهم ، الى أن كان من أمره ما يأتى ذكره ان شـــاء الله .

---

31 — فى ك : فتكلم معهم فى امور كثيرة ، وناظرهم فى مسائل علميـــة .
32 — فى ك + د : اجعله فى الكبول ، والا قصده ان يسمعك الطبول .
33 — فى ك + د : بالحضرة .
34 — انظر حول ملابسات هذا الموقف ونتائجه اخبار المهدى للبيذق : 28 — 29 .
35 — انظر اخبار المهدى : 29 — 32 ، وعنده ان ذلك كان فى عام اربعة عشر وخمسمائة .

وفى أثناء خروجه الى سوس ، خرج أمير المسلمين على بن يوسف ، عن مراكش ، برسم الجواز الى الاندلس للنظر فيما نشأ بين أهل قرطبة والمرابطين من الفتنة .

وصعد ابن تومرت جبل درن ، وتوجه الى بلده هرغة (36) من السوس الاقصى ، فاجتمع اليه أناس من قبيله وغيرهم ، فاستوثق من قبيلته ، ومنعة موضعها ، لانه مكان لا يصل اليه أحد الا من طريق لا يسلكها الا راكب بعد راكب ، يسد خللها أقل عصبة من الناس ، لما فيها من التوعر ، وأقام بها لما كان أمير المسلمين بالاندلس .

ولما عاد أمير المسلمين على بن يوسف الى المغرب ، ألفى خبره قد شاع ، وأن الناس يتبعونه ، فقلق من ذلك ، وكتب الى عامله بالسوس أبى بكر اللمتونى بأن يحتال فى القبض عليه ، فلم يقدر على ذلك .

وأخذ المهدى عند ذلك فى الاحتراز والحذر ، والتحفظ على نفسه ، وتمام خبره يأتى بعد ، فى اسمه ان شاء الله .

وان أمير المسلمين على بن يوسف اضطربت عليه الامور من لدن ظهور المهدى عليه ، فلم يستتم له أمر الى حين وفاته .

وبعد هذا الكلام أعرف بالمهدى ، وبداية أمره ، وما نشأ من الحوادث فى زمانه ، وأعود الى تمام دولة أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ، ان شاء الله .

---

36 — فى ك : بلاد هرغة ، وهرغة قبيلة من مصمودة البربرية ، واسمها اصلا : ارغن ، انظر اخبار المهدى : 33 . المقتبس من كتاب الانساب للبيذق — ط . الرباط 1971 ، ص : 27 . ومن اجل السوس ، انظر الروض المعطار .

ذكر ظهور المهدى وابتداء أمره

نسبـــه : هو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هـود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحيى بن رباح (37) بن يسار (38) بن العباس بن محمد بن الحسن بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، أثبت هذا النسب أبو على بن رشيق فى شجرة أنساب الخلفاء والامراء (39) ؛ وحققه ابن القطان (40) ، واختصره أبو مروان ابن صاحب الصلاة (41) .

كنيتـــه : أبو عبد الله ، وكان يقال لوالده تومرت ، وأمغار ، وأسافو ، ومعناه بلسان البربر الضياء ، لايقاده الضياء فى المسجد .

لقبـــه : المهدى ، لقب به لما بايعه الناس (42) بالعهد .

قال ابن القطان : رحل المهدى : من وطنه هرغة ، قبيلة بسوس الاقصى ، فى طلب العلم سنة خمسمائة الى الاندلس ،

---

37 — فى ك : ابن رابح بن ياسر .

38 — فى هـ : ياسين .

39 — بعدما اورد البيذق نسبا آخر للمهدى ، ساق رواية هذا النسب ، ولاحظ « أن قرابته — المهدى — واهل العناية بهذا الشأن لا يعرفونه » ، اى لا يعرفون هذه الرواية . المقتبس من كتاب الانساب : 12 — 13 .

40 — نظم الجمان — ط . تطوان : 34 .

41 — ليس فى المطبوع من كتب المن بالامامة ، لان ما وجد من الكتاب عند نشره ناقص اوله .

42 — فى د : ولقب لما بايعه الناس بالمهدى .

وجاز فيها من مرسى المرية فى مركب الى الشام (43) ، فقرأ على الامام أبى عبد الله الحضرمى ، وبمصر على الامام أبى الوليد الطرطوشى (44) ، وببغداد على الامام أبى حامد الغزالى (45) ، وقد كان كتابه الذى سماه احياء علوم الدين وصل الى المغرب والاندلس ، وأن فقهاء قرطبة تكلموا فيه ، وأنكروا فيه أشياء .

قال ابن القطان : ولا سيما القاضى ابن حمدين ، فانه بالغ فى ذلك حتى كفر جميع من قرأه ، وعمل به ، وأغرى به السلطان ، واستشهد بالفقهاء ، فأجمعوا على حرقه ، فأخذ على بن يوسف بفتياهم ، وأمر بحرقه ، فأحرق بقرطبة (46) ، وكتب الى سائر بلاده يأمر باحراقه ، وتوالى الاحراق على ما ظهر منه ببلاد المغرب فى ذلك الوقت ، فيذكر أن حرقه كان سببا لزوال ملكهم ، وانتثار سلكهم (47) .

حكى ابن صاحب الصلاة عن عبد الله بن عبد الرحمن العراقى (48) ، شيخ مسن من سكان فاس ، قال : كنت ببغداد بمدرسة (49) الشيخ الامام أبى حامد الغزالى ، فجاءه رجل

---

43 — فى ك : الشرق .
44 — انظر المقتبس للبيذق : 28 — 29 ، حيث ذكر من اخذ عنهم المهدى ، ومن اختص بهم من الشيوخ .
45 — كذا ، وفيه ما فيه ؟ .
46 — فى ك : واحراق ما بقرطبة .
47 — فى د : حرقه كان سببا لخروج الامر عنه .
48 — فى د + ه : المقرانى ؟ .
49 — المقصود هو المدرسة النظامية ، انما الخبر مردود .

كث اللحية على رأسه كرزية صوف (50) ، فدخل المدرسة ، وأقبل على الشيخ أبى حامد ، فسلم عليه ، فقال : ممن الرجل ؟ فقال : من أهل المغرب الاقصى ، قال : أدخلت قرطبة ؟ قال : نعم ، قال : كيف فقهاؤها ؟ قال : بخير ، قال : هل بلغهم كتاب الاحياء ؟ قال : نعم ، قال : فماذا قالوا فيه ؟ فصمت الرجل حياء ، فعزم عليه ليقولن ، فأطرق رأسه ، وأخبره باحراقه ، وبالقصة كما جرت ، قال : فتغير وجهه ، ومد يده للدعاء ، والطلبة يؤمنون عليه (51) ، فقال : اللهم مزق ملكهم ، كما مزقوه ، وأذهب دولتهم كما أحرقوه ، فقال له أبو عبد الله بن تومرت السوسى — الملقب بالمهدى — : أيها الامام ادع الله أن يجعل ذلك على يدى ، فتغافل عنه ، فلما كان بعد أيام أتى الحلقة شيخ آخر على شكل الاول ، فسأله الشيخ أبو حامد ، فأخبره بصحة الخبر المتقدم ، فدعا بمثل دعائه الاول ، فقال له المهدى : على يدى ان شاء الله ! فقال : اللهم اجعله على يديه ، فقبل الله دعاءه (52) .

وخرج أبو عبد الله بن تومرت من بغداد ، وصار الى المغرب ، وقد علم أن دعوة الشيخ لا ترد ، فكان من أمره ما يأتى ذكره ان شاء الله تعالى .

---

50 — هى عمامة من الصوف كانت مستعملة عند قبائل الصحراء ، كما نص على ذلك الادريسى فى كتابه نزهة المشتاق : 12 — من ط . الجزائر 1957 ، وهى الآن تستعمل فى المغرب للدلالة على الحزام من الصوف .

51 — فى ك : على دعائه .

52 — اثر الصنعة واضح على هذه القصة .

ولما وصل الى المهدية (53) ، غير بها المنكر ، فرفع أمره الى العزيز بن الناصر (54) ، فهم أن يأخذه ، فهرب الى بجاية (55) ، فبلغ خبره لابن حماد (56) صاحبها ، فاختفى وخرج منها الى رباط ملالة (57) ، وكان اذ ذاك عبد المؤمن بن على قد توجه به عمه ، وهو فتى جميل الوجه ، رائع الجمال ، يؤم بلاد المشرق ، وكان قصده أن يعلمه العلم ، فقصد به الى المهدى ، وجلس معه ، فسأله عن اسمه ؟ فقال له : عبد المؤمن بن على ، وسأله عن بلاده ، فقال له : قطر تلمسان ، فقال له : أتكون من تاجرا (58) ؟ قال : نعم ، وأنا أريد الرحلة فى طلب العلم لبلاد المشرق ، فقال له المهدى : العلم الذى تطلبه بالمشرق قد وجدته بالمغرب ، الى أن قرأ عليه المهدى كتابا يقول فيه : لا يقوم الامر الذى فيه حياة الدين الا بعبد المؤمن بن على سراج الموحدين ، فبقى معه يقرأ عليه برباط ملالة ، الى أن خرجا عنها الى ونشريس ، فصحبه

---

53 — بناها المهدى عبد الله ، اول خلفاء الدولة الفاطمية فى افريقية — تونس — وهى ما تزال قائمة ، كبيرة فيها العديد من الآثار الفاطمية ، وعلى راسها المرسى ، والمسجد الجامع ، وبعض التحصينات العسكرية .

54 — هو على بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس (509 — 515 هـ) انظر : اعمال الاعلام : 81/3 — 83 . المؤنس فى اخبار افريقية وتونس — ط . تونس 1967 — ص : 91 . تاريخ الدولتين للزركشى — ط . تونس : 1966 — ص : 4 — 5 .

55 — كانت اهم قاعدة فى المغرب الاوسط ، وهى الآن من مدن ساحل الجزائر . انظرها فى الروض المعطار .

56 — انظر اعمال الاعلام : 99/3 . اخبار المهدى : 13 — 15 .

57 — انظر اخبار المهدى : 18 — 19

58 — ما زالت معروفة بهذا الاسم قرب مدينة ندرومة الى الشمال الشرقى منها . الروض المعطار — مادة ندرومة — اخبار المهدى : 16 — 17 .

منها أبو محمد البشير (59) ، وانتقلوا الى مدينة فاس ، ثم خرجوا منها الى (60) حاضرة مراكش ، وانصرف عنها الى هرغة بلده من السوس الاقصى حسبما تقدم ذكره .

ولما كان بالسوس الاقصى ، وقد تبعه كثير من البرابر ، وذلك فى شهر ومضان المعظم سنة خمس عشرة وخمسمائة ، قام فيهم خطيبا ، وقال : الحمد لله الفعال لما يريد ، القاضى بما يشاؤه ، لا راد لامره ، ولا معقب لحكمه ، وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله المبشر بالامام المهدى ، الذى يملأ الارض قسطا وعدلا ، كما ملئت جورا وظلما ، يبعثه الله الى نسخ الباطل بالحق ، وازالة الجور بالعدل ، مكانه المغرب الاقصى ، وزمانه آخر الزمان ، والاسم الاسم ، والنسب النسب (61) ، والفعل الفعل .

قال الامام أبو يحيى بن اليسع : سمعت الخليفة عبد المؤمن يقول : لما فرغ الامام المهدى من كلامه هذا ، بادر اليه عشرة رجال من أتباعه والملازمين له ، كنت أنا واحدا منهم ، وقلنا له :

---

59 — هو عبد الله بن محسن الونشريسى ، كان من اهل المغرب الاوسط . المقتبس للبيدق : 31 — 32 . اخبار المهدى : 19 .

60 — فى د : مدينة ، وفى ك : حضرة .

61 — المشهور ان المهدى عند من يقول به من اهل السنة اسمه مثل اسم النبى وكذا اسم ابيه مثل اسم ابى النبى ، ونجد مثلا على هذا فى تاريخ ابى جعفر المنصور واسمه عبد الله حينما اعلن ابنه محمدا وخليفته من بعده مهديا ، وتعكس التسمية عند الشيعة ، فهو على ذلك « عبد الله بن محمد » وهذا ما نجده فى تاريخ المهدى مؤسس الخلافة الفاطمية ، والدراسات حول المهدية فى الاسلام كثيرة ، افضلها المواد التى اثبتها نعيم بن حماد المروزى الخزاعى (ت : 227 هـ) فى كتابه الملاحم والفتن ، ويمكن العودة الى كتاب المهدية فى الاسلام — تأليف سعد محمد حسن — ط . القاهرة : 1953 .

يا سيدى هذه الصفة لا توجد الا فيك ، فأنت هو المهدى ، فبايعناه فى أثناء ذلك ، على ما بايع به الصحابة رسول الله صلى اللـه عليه وسلم ، وأن نكون يدا واحدة على القتال والدفاع ، فبايعه أصحابه العشرة تحت شجرة خروب (62) ، وتتابع البرابر بعد ذلك عليه بالمبايعة (63) ، على أن يقاتلوا عنه ، ويبذلوا أنفسهم دونه ، فعرفهم بما فى ذلك من الارزاء والمحن والقتل ، والفتن ، فالتزموا ذلك .

هذا وأصحابه العشرة هم : عبد المؤمن بن على ، وعمر بن على أزناق ، واسماعيل بن مخلوف ، وأبو ابراهيم ، واسماعيل ابن موسى ، وأبو يحيى أبو بكر بن تنجيت (64) ، وأبو عبد الله بن سليمان ، وعبد الله بن ملويات (65) ، وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى ، وأبو محمد عبد الله البشير (66) ، وسمـاه أصحابه اثر بيعته بالمهدى ، وتابعهم (67) على هذا المعتقد باثرهم خمسون رجلا ، فسموا أهل الخمسين ، ثم تابعهم سبعون رجلا، فسموا أهل سبعين ، واختص المذكورن بهذا الاختصاص ، وانعقد لهم من البر والتكرمة ما أنهضهم ، وكان يعقد الامور العظام مع أصحابه العشرة ، لا يحضر معهم غيرهم ، فاذا جاء أمر أهون

62 — انظر اخبار المهدى : 34 — 35 .
63 — فى ك + د : للمبايعة .
64 — فى د : تنجيت .
65 — فى د : ملوات .
66 — هناك خلاف فى ضبط رسم العديد من اسماء أصحاب المهدى لاختلاف اللهجات البربرية ، ولما ينجم عادة عن تعريب اى اسم غير عربى الاصل . انظر المقتبس للبيذق : 30 — 32 .
67 — فى ك : وتبعهم .

أحضر الخمسين ، فاذا جاء دون ذلك ، أحضر معهم السبعين (68) .

وبايعه أهل هرغة ، وتينمال ، وهنتاتة ، وجدميوه ، وهسكورة ، وصنهاجة ، وبايعوه على ما أمرهم به (69) ، والتزموا نصره ، وأعلن لهم بحرب لمتونة ، وأخذ أشياعه يتأهبون للحروب (70) ، وجعل على كل عشرة منهم نقيبا ، وصنفهم أصنافا .

فالصنف الاول : أصحاب العشرة ، المتقدم ذكرهم ، والصنف الثانى : أهل الخمسين ، والصنف الثالث : أهل السبعين ، والصنف الرابع الطلبة ، والصنف الخامس : الحفاظ ، وهم صغار الطلبة ، والصنف السادس : أهل الدار ، والصنف السابع : أهل هرغة ، والصنف الثامن : أهل تينمال ، والصنف التاسع جدميوة ، والصنف العاشر : أهل جنفيسة ، والصنف الحادى عشر : أهل هنتاتة ، والصنف الثانى عشر : الجند ، والصنف الثالث عشر : الغزاة ، وهم الرماة ، ولكل صنف من هذه الاصناف رتبة لا يتعداها الى غيرها لا فى سفر ولا فى حضر ، لا ينزل كل صنف الا فى موضعه ، لا يتعداه ، فانضبط أمره ، وأقاموا على ذلك مدة حياته .

وأول ما دبر به أمرهم أنه ألف لهم كتابا سماه « التوحيد » باللسان البربرى ، وهو سبعة أحزاب ، عدد أيام الجمعة ، وأمرهم بقراءة حزب واحد منه كل يوم اثر صلاة الصبح ، بعد الفراغ من

68 — انظر المقتبس للبيذق : 32 — 35 .
69 — انظر المقتبس للبيذق : 36 — 57 .
70 — فى د : التأهب للحرب .

حزب القرآن ، وهو يحتوى على معرفة الله تعالى ، وسائر العقائد ، كالعلم بحقيقه القضاء والقدر ، والايمان بما يجب لله تعالى ، وما يستحيل عليه ، وما يجوز وما يجب على المسلم (71) من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وواخى (72) بينهم فيه .

وألف لهم كتابا سماه « بالقواعد » وآخر سماه « بالامامة » ، هما موجودان بأيدى الناس الى هذا العهد ، ودونهما بالعربى والبربرى ، وكان أفصح الناس فى اللسان العربى ، واللسان البربرى ، ينقل بهما اليهم المواعظ والامثال ، ويقرب لهم (73) المقاصد ، فجذب نفوسهم ، واستجلب قلوبهم ، وسهل عليهم التعليم بنفسه وبأعيان أصحابه .

وان أمير المسلمين على بن يوسف ، لما لم يقدر على القبض عليه ، جهز جيشا لمحاربته ، قدم عليه والى السوس أبابكر اللمتونى ، فلما قرب منه لم يقدر على لقائه لكثرة من تبعه من الامم ، فأردف عليه بعد ذلك عسكرا ثانيا ، أكبر منه ، قدم عليه أخاه الامير أبا اسحق ابراهيم ، فلما تلاقوا معه عاين الحشم منه ما بهتهم ، فانهزموا أمامه ، دون قتال ، وفقد من الجيش عدد وافر ، واستولى على محلتهم .

قال ابن بجير : ولما سمع على بن يوسف بهذه الهزيمة ، ومخالفة هنتاتة عليه ، واتباعهم للمهدى ، اغتم لذلك ، وجهز عسكرا عظيما ، قدم عليه سير اللمتونى بن مزدلى ، فهزموه وقتلوا

71 — فى د : المكلف .
72 — فى ك : وافى .
73 — فى ك : اليهم .

كثيرا ممن كان معه ، ولما كان بعد هذه الهزيمة ، سأل المهدى أصحابه عن لمتونة : ما يقولون عنا ؟ فقالوا له : لقبونا بالخوارج ، فقال لهم : لقبوهم أنتم بالمجسمين وبالزراجنة (74) ؛ وكتب لهم المهدى رسالة بخطه ، ومن انشائه نصها :

الى القوم الذين استزلهم الشيطان ، وغضب عليهم الرحمن ، الفئة الباغية ، والشرذمة الطاغية اللمتونية ، أما بعد :

فقد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ، ولزوم طاعته ، وان الدنيا مخلوقة للفناء ، والجنة لمن اتقى ، والعذاب لمن عصى ، وقد وجبت (75) لنا عليكم حقوق بوجوب السنة ، فان أديتموها كنتم فى عافية ، والا فنستعين بالله على قتلكم ، حتى نمحو آثاركم ، ونهدم دياركم ، وحتى يرجع العامر خاليا ، والجديد باليا ، وكتابنا هذا اليكم اعذار وانذار ، وقد أعذر من أنذر ، والسلام عليكم ، سلام السنة لاسلام الرضى .

قال : ولم يزل أمير المسلمين على بن يوسف ، يوالى الحروب على أصحاب المهدى من كل جانب ، ويبعث لمحاربتهم الجيوش والكتائب ، ويأمرهم بملازمة السكنى حيث كانت لهم الطاعة من أهل الجبال ، ويقيمون المدة الطويلة فى الحرب معهم والقتال ، وينفق عليهم بيوت الاموال ، رجاء فى دفع دائهم العضال ، فدامت

---

74 — اتهم المهدى المرابطين بالقول بالتجسيم ، وسماهم بالزراجنة ، وهو جمع زرجان ، والزرجان طائر اسود البطن ، ابيض الريش ، شبه المهدى المرابطين به ، لانهم — حسب رايه — بيض الثياب ، سود القلوب ، وسماهم ايضا بالحشم لا ستخدامهم اللثام ، كما تفعل النساء .

75 — فى د : اوجب

أكثر مدته فى حروب معهم ، وكروب ، ومهما وجه عسكرا عــاد مفلولا ، ودخل قلوب أجناده الذعر ، وخامرهم الفزع والرعب .

قال عبد الله بن أحمد الزهرى : حضرت بمراكش ، وقد احتفل أمير المسلمين على بن يوسف فى تجهيز عسكر الى الجبل الذى كان فيه الموحدون ، وقدم عليه أخاه الامير الاجل أبا الطاهر تميما ، فخرج بعسكر كبير ، وعندما صعد به فى مضائق الجبال وشواهق تلك الاوعار ، سدت عليه أفواه تلك الجبال ، وأدبروا ليلا منهزمين دون قتال ، وتراموا بخيلهم وبأنفسهم ، ودخل فلهم مع الامير أبى الطاهر مهزوما ، وكانت هذه الهزيمة بمقربة من (جبل) كيك (76) ، فاستمرت عليهم ، وجد الموحدون فى اتباع أثرهم الى أن وصلوا الى مقربة من جبل وريكة بقبلى أغمات فخرج اليهم عسكر لمتونة مع بطى اللمتونى ، فمزقهم الموحدون، وقتل فى المعركة بطى اللمتونى المذكور مع خلق كثير من أهــل أغمات وغيرهم ، وأن المهدى توجه الى تينمال (77) لما رأى من منعتها ، وحصانة موضعها ، فقسم أرضها وديارها على أصحابه ، فى خبر يطول شرحه ، وأدار على المدينة سورا أحاط بها من كل جانب ، وبنى على رأس الجبل سورا ، وأفرد فى قمته حصنا يكتشف على ما وراء الجبل ، ولا يعلم مدينة أحصن من تينمال ،

---

76 — انظر اخبار المهدى : 39 ، 91 ، وفى ك : من جبل وريكة .

77 — ويكتب اسمها احيانا : تينملل ، وهى قريةموجودة الآن فى المغرب ، واقعة على بعد حوالى « كلم » واحد من الطريق الذاهب من مراكش الى رودانة (الكيلومتر 104) ، وفى القرية قبر المهدى مع خليفته عبد المؤمن ، وآثار مسجد موحدى كبير .

لا يدخلها الفارس الا من شرقها ، أو من غربها ، فأما غربها (78) ؛ وهو الطريق اليها من مراكش ، فطريق أوسع ما فيه أن يمشى عليه الفارس وحده موسعا ، وأضيقه أن ينزل عن فرسه خوفا من سقوطه ، وكذلك شرقها ، لان الطريق محنوعة فى نفس الجبل ، تحت راكبها حافات ، وفوقه حافات ، وفيها مواضع مصنوعة بالخشب ، اذا أزيلت منها خشبة لم يمر عليها أحد ، ومسافتها على هذه الصفة نحو مسيرة يوم (79) ؛ وهذا الجبل جبل درن ، جبل مثلج أبدا ، آخذ من البحر المحيط ؛ الى قريب من تلمسان نحو مسيرة خمسين يوما ، وتتصل به من جهة تلمسان جبال أخرى؛ تنقطع عند قابس ، وأحواز الجمة (80) ؛ وهى مسيرة شهرين .

ولما استقر المهدى والموحدون بتينمال ، كان بمراكش رجل من أهل الاندلس يعرف بالفلكى الاندلسى ؛ وكان فاتكا شهما ؛ قاطع سبيل ، فعفا عنه أمير المسلمين على بن يوسف ، وسد به ثغور (81) مراكش ، فأول ما صنع له حصون ، ضبط بها أنقاب جبل درن ، الذى يتوقع بسببها الخوف من نزولهم الى البسائط ؛ فمنعهم من الهبوط عليها (82) .

---

78 — فى ك + د : غربيها .

79 — يذكر هذا الوصف بما يجده المرء فى المصادر المشرقية من عربية وايرانية لقلعة الموت التى اتخذها حسن الصباح مقرا لدعوته الاسماعيلية الجديدة ، ويبدو ان المهدى علم بأخبار حسن الصباح وتنظيماته عندما كان فى المشرق ، ولعله استفاد منها .

80 — موقع معروف فى تونس ، يبعد قرابة / 22 كم / من المهدية ، فيه آثار من العهد الرومانى فريدة فى ضخامتها .

81 — فى د + هـ : ثغر .

82 — ذكر البيذق فى كتابه اخبار المهدى 90 — 92 ، اسماء الحصون التى بناها المرابطون ، عنده ان الفلكى الاندلسى قد وجد مع اصحابه عام خمسة وثلاثين وخمسمائة .

ذكر حصار المهدى لمراكش

ولما فشت دعوة المهدى ، واتصلت طاعته ، وكثر أتباعه ، وتكررت هزائمه للمرابطين المرة بعد المرة ، خاطب جميع الموحدين برسالة بخط يده ، يستدعيهم للوصول اليه ، ويأمرهم بالقدوم عليه لتينمال ، فوصلوا فى غاية الاستعداد ، وقوة الامداد ، وتجمع عنده منهم نحو أربعين ألفا ، فيهم الفرسان ، والغالب منهم الرجالة ، وقدم عليهم الشيخ أبا محمد البشير أحد العشرة من أصحابه ، ولم يسافر هو معهم ، اذ كان قد أصابه مرض ، ونزلوا من الجبل يريدون حاضرة مراكش ، فخرج اليهم المرابطون فى أزيد من مائة ألف ، ما بين فارس وراجل ، فهزمهم الموحدون أصحاب المهدى ، ودخلوا المدينة على أسوأ حالة (83) ، ومات منهم بالسيف وبالازدحام على الابواب خلق كثير ، وحصروا مراكش مدة أربعين (84) يوما ، فتوالت الحروب ، واشتعلت نارها كل يوم فى قتال وهزائم ، وأعراس للطيور وولائم ، وكان جملة من انحصر بها من الفرسان نحو أربعين ألفا ، ومن الرجالة ما لا يحصى عددهم الا خالقهم .

وفى خلال الحصار كان رجل من رؤساء الثغور بالاندلس ، يعرف بعبد الله بن همشك ، صنو الرئيس أبى اسحق ، بمراكش ، فكان بداخل مراكش ، مع أهل البلد ، وهى محصورة ، فى مائة فارس من أصحابه الاندلسيين فقال يوما لامير المسلمين على

83 — فى د + : حال .
84 — فى د : مدة من اربعين ، وفى ك نحوا من اربعين .

بن يوسف : ما نعير الا بالمقام تحت الحصار ، فضحك أمير المسلمين من قوله ، وحمله على السلامة والانفة ، وقال له : يا أبا محمد أتحسب أن قتال المصامدة مثل قتال الروم ؟ فقال له : يا أمير المسلمين ، قد كان عندى ببلاد الاندلس جماعة منهم ، نعلم خفتهم وشجاعتهم ، وتسارعهم للقتال ، ولكن المقام هكذا ليس بصواب ، والغزاة كثير عندكم ، يعنى الرماة ، فان كنتم تنظرون غير هؤلاء ، فالكل غير نافع ، اذ ينتظر بعضهم بعضا ، وانما يصنع ذلك مع القلة ، وأما مع الكثرة فلا ، ولكن أرغب من الله ، ومن الحضرة أن تأمرونى بجمع ثلاثمائة فارس (75) ، وأخرج بهم ، فأذن لهم فى ذلك ، وخرج ابن همشك بمن تجمع له من أصحابه من الاندلس ، لقتال الموحدين . فتشوف (86) على أحوالهم ، وكيفية قتالهم ، فرأى لهم عوالى كثيرة الطول ، فعند ذلك أشار على أصحابه أن يقصروا رماحهم ، وأن يردوها من ستة أذرع ، وبرز اليهم أول النهار ، فما انتصف حتى أدخل البلد منهم ثلاثمائة رأس .

ولما دخل بالرؤوس نشط الناس بمراكش ، وساروا بذلك لأمير المسلمين ، فأمر (87) فى الحين بخروج عسكر ، وقدم عليه الشيخ أبا محمد بن وانودين ، فالتقوا لقاءا ثبت الله فيه أقدام المرابطين ، وهزم الموحدين ، وسائر المصامدة ، وقتل منهم

85 — فى د : ان يأمر لى بجمع مائة فارس ، وفى ك : ان تأمرنى بجمع ثلاثمائة فارس .

86 — فى د : فلما تشوف على احوالهم .

87 — فى ك : وسروا بذلك ، فأمر امير المسلمين على بن يوسف بخروج .

فى ذلك اليوم أزيد (88) من أربعين ألفا ، ولم يسلم (89) منهم الا نحو أربعمائة ما بين فارس وراجل ، وقتل المقدم على عسكر الموحدين ، وهو الشيخ أبو محمد البشير ، أحد العشرة من أصحاب المهدى .

وكان لعبد المؤمن بن على فى ذلك اليوم ظهور ذب فيه على المنهزمين ، وحمى حوزه المفلولين ، واتبعهم المرابطون من من حاضرة مراكش ، الى أغمات ، فأمعنوا القتل فيهم ، ولم ينج منهم الا اليسير ، ولما وصل الفل الى المهدى ، وفيهم أربعة من أصحابه ، وعبد المؤمن معهم وجدوه بتينمال مريضا ، فقال لهم : أسلم عبد المؤمن ؟ . قالوا : نعم ، قال منذ عاش عبد المؤمن بقى الامر (90) ، ذكر (91) ذلك ابن صاحب الصلاة وغيره .

ويذكر أنه كان لطائفة المهدى من الموحدين على المرابطين فى الحروب التى كانت بينهم نحو أربعين هزيمة حتى كانت هذه عليهم ، قتلوا فيها أجمعين ، ولم ينج منهم الا نفر يسير ، غزا المهدى منها بنفسه أربع غزوات (92) ، فتح الله فيها عليه وعلى الموحدين الذين كانوا معه ، ولم يزل يرجع الى مستقره (93) بتينمال ظاهرا ظافرا من غزوه (94) .

---

88 — فى د : على .
89 — فى ك : ينجو
90 — تعرف هذه المعركة : بيوم البحيرة ، انظر اخبار المهدى : 39 — 41 .
91 — فى د : نقل .
92 — كذا فى الاصل ، وهى عند البيذق — اخبار المهدى : 35 — 39 ، تسع غزوات .
93 — فى د : حضرة .
94 — فى ك : ولم يزل مستقره بتينمال ظاهرا ظافرا من عدوه ، وبعد ذلك .
وفى د : ويرجع الى حضرة تينمال ، ولما كان بعد هذه الهزيمة على الموحدين اشتد به المرض .

وبعد ذلك اشتد المرض بالمهدى ، وخرج من داره ليودع أصحابه ، وجمع الناس ليسمعوا كلامه ، ويشهدوا وداعه ، فقال لهم : ان صاحبكم راحل عنكم ، فبكى الناس وودعوه ، ثم دخل الى داره ، واتصل به المرض الى أن توفى يوم الاثنين الرابع عشر لشهر رمضان المعظم من عام أربعة وعشرين وخمسمائة ، كانت مدته (95) من أول مبايعته الى حين وفاته ثمانى سنين وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوما .

ولما توفى (96) كتم أصحابه وفاته . ولم يعلموا بذلك أحدا الى أن أقاموا بعده عبد المؤمن بن على حسبما يأتى ذكره .

قال كاتب هذا : وأورد هنا شيئا من كلامه ، مما أثبته فى بعض تواليفه الصادرة عنه ، فمن ذلك قوله : اعلم أرشدنا (97) الله واياك أنه واجب على كل مسلم ، أن يعلم أن الله عز وجل ، واحد فى ملكه ، خلق العالم بأسره ، العلوى والسفلى ، والعرش والكرسى ، والسموات والأرض ، وما فيها وما بينها ، وجميع الخلائق مقهورون بقدرته ، لا تتحرك ذرة الا باذنه ، ليس معه مدبر فى الخلق ، ولا « شريك فى الملك (98) » حى قيوم « لا تأخذه سنة ولا نوم (99) » « عالم الغيب والشهادة (1) » « لا يخفى عليه شىء فى الارض ولا فى السماء (2) » .« يعلم ما فى

95 — فى ك : أيامه .
96 — فى ك : مات .
97 — يعرف هذا النص عند الموحدين باسم المرشدة .
98 — الاسراء : 111 .
99 — البقرة : 255
1 — الحشر : 22 .
2 — آل عمران : 5 .

البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين (3) » ، « أحاط بكل شىء علما (4) » « وأحصى كل شىء عددا (5) » ، « فعال لما يريد (6) » . قادر على ما يشاء ، له الملك والغنى ، وله العزة والبقاء « وله الحكم (7) » والقضاء ، و « له الاسماء الحسنى (8) » لا دافع لما قضى ، ولا مانع لما أعطى ، يفعل فى ملكه ما يريد ، ويحكم فى خلقه بما يشاء ، لا يرجو ثوابا ، ولا يخاف عقابا ، ليس عليه حق ، ولا عليه حكم ، فكل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون (9) » ، موجود قبل الخلق ، وليس له قبل ، ولا بعد ، ولا فوق ولا تحت ، ولا يمين ولا شمال ، ولا أمام ، ولا خلف ، ولا كل ، ولا بعض ، لا يقال متى كان ، ولا أين كان ، ولا كيف كان ولا مكان ، كون المكان ، ودبر الزمان ، لا يتقيد بالزمان ، ولا يتخصص بالمكان ، لا يلحقه وهم ، ولا يكيفه عقل ، لا يتحصل فى الذهن ، ولا يتمثل فى النفس ، ولا يتصور فى الوهم ، ولا يتكيف فى العقل ، لا تلحقه الاوهام والافكار ، « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير (10) ».

ومن دعائه الذى كان يدعو به : اللهم أعنا على طاعتك ،

---

3 — الانعام : 59 .
4 — الطلاق : 12 .
5 — الجـن : 28 .
6 — هود : 107 .
7 — القصص : 70 .
8 — طـة : 8 .
9 — الانبيـاء : 23 .
10 — الشـورى : 11 .

وأتم (11) علينا نعمتك ، وزدنا من فضلك واحسانك ، وثبتنا على دينك حتى نلقاك وأنت راض عنا برحمتك يا أكرم الاكرمين .

اللهم وفقنا ولا تخذلنا ، واهدنا ولا تخيبنا ، ووفقنا لما تحب وترضى (12) ، حيثما كنا ، وأعنا على القيام بحقك ، وحفظ أمانتك ، ورعاية عهدك ، بفضلك يا أرحم الرحمين ، يا رب العالمين ، وكان يقول فى آخر دعائه : اللهم انك تعلم ذنوبنا فاغفرها ، وتعلم حوائجنا فاقضها ، وتعلم أعداءنا فاكفنا شرهم (13) ، كفى بك وليا ، وكفى بك نصيرا .

ومن شعره ما قاله فى عبد المؤمن بن على :

تجمعت فيك أشياء خصصت بها
فكلنا بك مسرور ومغتبط
فالسن ضاحكة والكف مانحة
والصدر متسع والوجه منبسط (14)

وقد تم الكلام فى أخبار المهدى ، وأعود الى تمام دولة أمير المسلمين على بن يوسف ، وما كان من الاحداث فى أيامه ، وذلك أنه لما اضطربت عليه الامور ، من لدن ظهور المهدى ، وعبد المؤمن بعده ، لم يستقم له أمر حتى مات ، والموحدون فى أثناء ذلك تنمو أحوالهم ، ويعظم شأنهم ، وتأججت نار الفتنة بالمغرب ، واصطلى بحرها طلاب العافية ، ورضيها كل من ذهب الى الفساد ، وبسبب هذه الفتنة اتصلت الحروب ، وغلت الاسعار ، وتوالت

11 — فى د + ك : واتمم .
12 — فى د تحبه وترضاه .
13 — فى د : فاكفيناهم .
14 — من المرجح انه تمثل بهما .

الفتن ، وعم الجدب وقلت المجابى ، وكثر على أهل الاسلام المحن بالعدوتين ، ووجه كثير من حماة الاندلس الى العدوة ، ونقل اليها كثير من أسلحتها وعددها ، فكان ذلك أعظم فساد حل بالاندلس (15) ، واختل أمرها عليهم ، وألح النصارى بالضرب على جهات بلاد الاندلس حين علموا عجز الامارة بالمغرب عن الدفاع ، لما هم فيه من الفتن ، حتى تغلبوا على كثير من بلادها ، وكان الاسلام بها عزيزا ، والكفر مقهورا ، والجزية مرتفعة (16) منذ ملكها يوسف بن تاشفين الى زمان خروج المهدى ، فساءت الاحوال ، وكثرت الشدائد والاهوال ، ولما انتهت الحال بالعدوتين الى ما ذكر ، اجتمع المرابطون ، ووقع اتفاقهم على أن يكون ولى العهد بعد أمير المسلمين على بن يوسف ولده (تاشفين) لزعامته وشجاعته وشهامته ، ورجاحة عقله ، ولما ظهر منه فى الاندلس ، من النكاية فى العدو ، فولاه عهده ، وقدمه على عساكره، ومباشرة الحروب التى كانت بينه وبين الموحدين ، ولما رأى أمير المسلمين على بن يوسف ما كان فيه من الادبار اغتم غما ، أورثه مرضا ، أثر فى جسمه ، فالتزم فراشه ، واشتد به ألمه ، وزادت علته ، الى أن توفى رحمة الله عليه ، وكانت دولته ستا وثلاثين سنة وسبعة أشهر ، ومات بمراكش فى رجب الفرد سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ، وأوصى أن يدفن بين قبور المسلمين ، ولم يشهر موته الا بعد ثلاثة أشهر من وفاته ، وولى بعده ابنه :

---

15 — فى د : من اعظم فسادها .

16 — اى الجزية المفروضة على المسلمين ، كما كان الحال ايام دول الطوائف .

أمير المسلمين تاشفين بن على بن يوسف

كنيتـــه : أبو محمـــد .

ولى عهده . بعده : ابنه ابراهيم .

ووزراؤه : جماعة من المرابطين .

كان بينه وبين الموحدين فى مدة أبيه ، ومدته حروب ووقائع ، كان لهم فيها الظهور عليه ، واستقبل جيوش عبد المؤمن بن على بعد موت المهدى المرة بعد المرة ، فلم تقم له قائمة ، وتبدد عسكره، ولم يكن له جواز الى الاندلس فى مدته بسبب اشتغاله بحـــرب الموحدين ، الا أنه جاز اليها لما ولاه أبوه عليها ، وكان بطلا شجاعا حسن الركبة والهيئة ، وكان يسلك طريق الشريعة ، ولاه أبوه على عهده الاندلس ، فقوى الحصون وسد الثغور ، وأذكى العيون على العدو ، وآثر الجند ، ولم تنل عنده الحظوة الا بالغناء والنجدة ، فحمل على الخيل ، وقلد الاسلحة ، وأوسع الارزاق ، واستكثر الرماة ، وأركبهم ، وأقام هممهم ، وعنى مدة مقامه بها بالغزو ، ومباشرة الحرب ، فهزم الجيوش ، وافتتح الحصون ، وتهييه العدو ، فلم ينهض الا ظاهرا ، ولا صدر الا ظافرا ، ومهد أحوالها بالحزم ، وملك نفـــوس الرعيـــة بالمعدلة ، وقلوب الجنـــــد بالنصفة (17) ، وله فيها غزوات مشهورة ، ووقائع مذكورة ، أشير الى طرف منها ، وأعود الى ذكر حاله فى العدوة ، منها :

---

17 ــ عرض هذا الوصف فى النسخ الخطية بشكل مضطرب ، فيه بتـــر وتقديم وتأخير .

غزوته الشهيرة بأحواز بطليوس ، بقرب الزلاقة ، موضع المعركة التى أوقع فيها جده بالطاغية الاعظم أذفنش حسبما تقدم ذكره ؛ وذلك أن الامير تاشفين اتصل به أن عظماء الروم وزعمائهم تألف لهم جيش يحتوى على آلاف من أنجاد رجالهم ، ومشاهير أبطالهم ، وقصدوا ناحية بطليوس ، فجاسوا خلالها ، ودوخوا أرضها ، فزحف اليهم ، وتلاقى معهم بمقربة الزلاقة ، فلما تراءى الجمعان اضطربت المحلتان ، وتراكبت المراكب ، فاتخـــذت مصافها ، ولزمت الرجال مراكزها ، فكان فى القلب مع الامـــير تاشفين المرابطون ، وأصحاب الطاعات ، تتقدمهم البنود البيض الباسقات المكتوبة بالآيات ، وفى الجانبين كفاة الدولة ، وحماة الدعوة من أبطال الاندلس ، تتقدمهم حمر الرايـــات ، بالصور الهائلات ، وفى الجناحين (18) أهـــل الثغور ، وذوو الجـــلادة والصبر ، وفى المقدمة مشاهير زناتة ، ولفيف الحشم أهل العزائم الماضية ، والبصائر الثابتة ، بالرايات المطيفة ، والاعلام المنيفة ، فالتقى الجمعان ، واشتد الضرب والطعان ، فولى الكفرة الادبار ، وأمعنوا فى الفرار ، فتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، وصدر تاشفين الى قرطبة عزيزا ظافرا ، وكان ذلك سنة ثمان وعشرين وخمسمائة .

وكانت له أيضا بالاندلس غزوة عظيمة ، وهى غزوة جبل القصر (19) ، وذلك أن الروم اجتمعوا فى جيوش وافرة ، وحشود متكاثرة ، فاكتسحوا البلاد ، وسبوا ما ألفوه من العباد ، فاستحضر

18 — فى د : الجانبين .
19 — ذكره الحميرى فى الروض المعطار .

الامير تاشفين زعماء المرابطين ، ونظر ما عندهم فى لقاء عدوهم ، فقالوا له : الدولة لنا ، فأما تركها أو حمايتها ، لا يتعذر منا أحد الى لقاء عدونا ، فاذا نحن استشهدنا ، فالامر لمن شاء الله بعد ، ثم استدعى العرب ، فقالوا له : ارم العدو بنا ، ولا تشرك أحدا معنا ، وسيرى الله عملنا ، استدعى زناتة والحشم ، فقالوا : لا جواب الا بالفعل ، وشرطنا أن تعول أيتامنا ، جزاك الله خيرا ، فأجابهم بما أطاب به نفوسهم (40) ، وقوى به عزمهم ، وخرج بالجميع الى الجهاد ، فكر (21) اليه من أعلمه أن الروم مالت الى التحصن فى جبل القصر ، فأخذ الى الجبل ، فتعلقت الخيل به ، ترهقه وتصيب منه ، وقد شرع القتل فى الروم ، فهالهم الامر ، وترددوا آخذين فى غير طريق ، فأخذهم الطعن والضرب الى عدة أميال ، فأتى على جلهم القتل ، وأفلت النزر ، وامتلأت أيدى المسلمين ، من دوابهم وأسلحتهم ، وفكت الاغلال عن الاسارى ، وصرفت المواشى الى بلادها ، وكان هذا الفتح يربى على ما تقدم من نظرائه لاستئصال شوكتهم ، ووصل الامير تاشفين الى قرطبة ، وقد صنع الله له بفضله ما غاظ به عدوه .

وقد كانت له هزيمة على النصارى من بعد مناجزة جرت بين الفريقين أسلمه فيها جل من كان معه ، فتجلد للوقوف ، وصبر للمدافعة ، فلم ير أربط منه جأشا ، ولا أشهم نفسا فى مطلع ذلك الهول .

---

20 — فى د : بما اطاب به انفسهم .

21 — فى د : فجاء .

وعند احتدام القتال هنأه الفقيه الكاتب أبو زكريا بن الصيرفى (22) بالسلامة فى القصيدة المسطرة بعد ، وحذره من خدع الحرب ، ونبهه على أحكامها ، وما ينبغى أن يفعل فيها ، ورأيت أن أضعها فى هذا الكتاب (23) ، لما تحتوى عليه من سياسة الحروب ، ولمناسبتها (24) لهذا الموضع ، وهى هذه القصيدة المذكورة أولها هذا :

يا أيها الملأ الذى يتقنع (25) — من منكم البطل الهمام الاروع (26)

ومن الذى غدر العدو به دجى — فانفض كل وهو لا يتزعزع

تمضى الفوارس والطعان يصدها — عنه ، ويدعوها الوفاء ، فترجع

---

22 — هو ابو زكريا يحيى بن محمد بن يوسف الانصارى الغرناطى ، يكنى بأبى بكر ، ويعرف بابن الصيرفى ، وهو صاحب كتاب الانوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية ؛ الذى سبق التعريف به . وكان كاتبا لتاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين . انظر اعمال الاعلام لابن الخطيب ، قسم المغرب : ص 257 — 260 ط . الدار البيضاء 1964 م .

23 — سقط من هنا مع القصيدة فى د .

24 — فى ك : وملابستها .

25 — اشارة الى استخدام اللثام من قبل الرابطين .

26 — فى ك : الاورع ، وهو ما اورده ابن الخطيب فى كتابه اعمال الاعلام : 260/3 .

والليل من وقع السنابك (27) بينهم
صبح على هام الكماة ملمع
عن أربعين ثنت أعنتها دجى
ألفان ، ألف حاسر ، ومقنع
لولا رجال كالجبال تعرضت
ما كان هذا السيل مما يردع
يتقحمون على الرماح كأنهم
ابل عطاش والأسنة مكرع
ومن الدجى لمم (28) على قمم الربى
وذؤابة بين الظبا تتقطع
فثبت والأقدام تزلق والردى
حول السرادق والأسنة تقرع
لا يعظمن على الامير فانها
خدع الحروب وكل حرب تخدع
ولكل يوم حنكة وتمرس
وتجارب فى مثل نفسك تنجع
يا أشجع الأبطال ليلة أمسه
اليوم أنت مع التجارب أشجع

---

27 — عند ابن الخطيب : 260/3 « من وضح الترائك » ، والترائك هى هى البيضات (او الخوذات) الناصعة البياض ، ومن المفيد ان نذكر ان هناك فوارق اخرى بين رواية صاحب الحال ورواية ابن الخطيب : 260/3 — 263 . انظر ايضا مقدمة ابن خلدون ، ط . بيروت : 489/1 .

28 — جمع لمة ، وهو شعر الراس .

ها أنت مـــن ملك ، على صغر ، لـــه
نظـــر صحيـــح ، والقنـــا تتصـــــدع
أهديـــك مـــن أدب الوغى حكما بهـــا
كانـــت ملـــوك الحرب مثلـــك تولـــع
لا أننـــــى أدرى بهـــــا ، لكنهـــــا
ذكـــرى تخـــص المؤمنـــين وتنفـــــع
خنـــدق عليـــك اذا ضربـــت محلـــة
سيـــان تتبـــع ظاهـــــرا أو تتبـــــع
وتـــوق مـــن كـــذب الطلائـــع انـــه
لا رأى للكـــــذاب فيمـــا يصنـــــع
فاذا احترست بـــذاك لـــم يك للعدى
فى فرصـــة أو فى انتهــــاز مطمـــــع
حارب بمـــن يخشى عقابك لا الـــذى
تخشـــى ومن فى جود كفـــك يطمـــع
قبل التناوش عـــب جيشك مفسحـــا
حيـــث التمكـــن والمجـــال الأوســـع
ايـــاك تعبيـــة الجيـــوش مضيقـــــا
والخيـــل تفحـــص بالرجال وتمـــزع
حصـــن حواشيهـــا وكـــن فى قلبهـــا
واجعل أمامـــك منهم مـــن يشجـــــع
وانبـــس لبوســـا لا يكـــون مشهـــرا
فيكـــون نحـــوك للعـــــدو تطلـــــع

واحتــل لتوقــع فى مضايقة الوغــى
خدعــا توريهـــا وأنت موســـــع
واحــذر كمــين الــروم عند لقائهــا
واحفــظ كمينــك خلفها اذ تدفـــع
لا تبقــين النهــر خلفــك عندمـــا
تلقــى العــدو فأمــــره متوقـــع
اجعــل مناجــزة العــدو عشيـــة
ووراءك الصدف (29) الذى هو أمنع
واصدمـــه أول وهلـــــة لا ترتــدع
بعــد التقــدم فالنكوص تضعضـــع
واذا تكاتفـــــت الرجــال بمعـــــرك
ضنــك فأطــراف الرمــاح توســع
حــتى اذا صعبت عليــك ولــم يكــن
الا شمــــاس دائــــم وتمنــــــع
ورأيــت نار الحــرب تضرم بالظبــا
ودخانـــه فـــوق الأسنـــة يسطـــع
ثــم اتئــد فجميــــع مــن أحملتــه
حتــى يكــون لــه المحــل الارفــع
ايــاك تعتــب ان تولــت عصبـــــة
كانــــت ترجــى للوغــى وتدفـــع
مــن معشر اعــراض وجهك عنهــم
أنكــى عقــاب فى القلوب وأوجـــع

29 ــ اى ظلام الليــل .

وهـم الكـرام فأيـن يذهب عنهـم
فعـل الجميـل وسخطك المتوقـع
تكبو الجياد وكـل حبـر عالـم
يهفـو وتنبـو المرهفـات القطـع
أنـى فزعتـم يا بنـى صنهاجـة
واليكـم فى الـروع كـان المفـزع
ما أنتـم الا أسـاود خيفـة
كـل لكـل عظيمـة مستطلـع
لو نـال سيدكـم بظلـم لـم يكـن
لكـم التفـات حولـه وتجمـع
انسـان عـين لـم يصنـه منكـم
جفـن وقلـب أسلمتـه الاضلـع
تلـك التـى جـرت عليكـم خطـة
شنعـاء وهـى علـى رجـال أشنع
أو مـا ليوسـف جـده مـن علـى
كـل وغضـل سابـق لا يدفـع ؟
أو ما لوالـده علـي نعمـة
وبكـل جيـد ربقـة لا تخلـع
أبطأتـم عن تاشفـين ولـم يـزل
احسانـه لجميعكـم يتسـرع
خاف العدا ، لكـن عليكـم مشفـق
فهجعتـم ، وجفونـه لا تهجـع

ومن العجائب أنه مع سنه

أدرى وأشهم فى الحروب وأضلع

ولقد غدا وكان العفو منه سجية

ولسطود لو شاء فيكم موضع

يا تاشفين أقم لجيشك عذره

بالليل والقدر الذى لا يدفع

هجم العدو دجى فروع مقبلا

ومضى يهيم وهو منك مروع

كم وقعة لك فى ديارهم انثنت

عنها أعزتها تذل وتخضع

النعمة العظمى سلامتك التى

فيها من الظفر الرضى و المقنع

كلا أهنى لا أخص بنعمة

فردا بها غل الجوانح ينقع

كانت تكون ولو اذا لتزلزلت

منها البسيطة والجبال تخشع

وهوت بأندلس عقاب لم تدع

فيها لذكر الله صوتا يرفع

لا ضيع الرحمن سعيك انه

سعى به الاسلام ليس يضيع

نستودع الرحمن منك وديعة

فهو الحفيظ لكل ما يستودع

وكان للأمير تاشفين بن على فى الاندلس غزوات كثيرة ؛ وكانت جيوشه موفورة . وراياته منصورة .

فلما استفحل امر الموحدين بالمغرب وجه عليه أبوه الى الاندلس ، وولاه عهده . وقدمه لمدافعتهم . ومباشرة حروبهم . فكانت بينه وبينهم وقائع ، أكثرها عليه .

ولما توفى أبوه . وخلص له الامر ، كثر الطائع لعبد المؤمن ؛ فنزل من جبال تادلا وجبال غمارة (30) ؛ يقتل ؛ ويغنم ؛ وسلك منه مستقبلا الجبال . ما بين فاس وتلمسان . تغير سراياه يمنة ويسرة . وتبعه الأمير (31) تاشفين . فكان الموحدون يسيرون فى الجبال المنيعة (32) حيث الارزاق الواسعة . وكان تاشفين ينزل البسائط بعساكره ، فلا يجد من البرابرة من يواصله ؛ ولا من يستعين به ، ويداخله . وذلك بسبب الادبار وانقطاع الدولة والانصار .

وانتقل عبد المؤمن الى جبل غمارة . فتبعه تاشفين ، ثم انتقل من جبل غمارة الى جهة تلمسان ؛ وبايعه أكثر زناتة المستوطنون بأحواز تلمسان ، ونزل برأس الجبل الذى عليها ، وجاز وعره تسلك خيله أية تريد .

قال أبو على الاشيرى(33) : ووصلت الى الامير تاشفين محلة

---

30 — انظر اخبار المهدى : 45 — 60 .
31 — فى ك : امير المسلمين .
32 — فى ك : المانعة .
33 — هو حسن بن عبد الله بن حسن الكاتب . من اهل تلمسان ، من رجال القرن السادس ، ترجم له ابن الابار فى التكملة ؛ وذكره ابن صاحب الصلاة فى المن بالامامة : 524 — 525 ، بين الشعراء فى البلاط الموحدى .

من ملك افريقية ابن حماد الصنهاجى برسم امداده واعانته ، وعندما وصلوا اليه ، برز اليهم بجموعه ، فملأ فحص تلمسان خيلا ورجالا ، الا أن الادبار كان له محاذيا ، وبانقطاع دولته مناديا ، فنزل الصنهاجيون بمحلتهم ، فأكرم تاشفين نزولهم ، وأحسن اليهم ، والموحدون خلال ذلك ينظرون الى ما يصنعون ، فما هالهم أمرهم ، ولا أفزعتهم كثرتهم ، وانهم طلعوا اليهم فى بعض الايام من جهة العباد (34) ، فهبط عليهم الموحدون ، وهزموهم ، وقتلوا كثيرا منهم ، وعند ذلك كتب تاشفين الى الاقطار يستدعى أهلها ، فوصله عسكر سجلماسة ، وعسكر الامداد من بجاية ، ووصل من الاندلس ابنه الامير أبو اسحق ابراهيم بن تاشفين ، فولاه أبوه عهده ، وذلك سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، وكان عنده من الروم نحو أربعة آلاف فارس ، واجتمعت عليه العساكر المذكورة بتلمسان ، وأمر بعرض الجيوش ، وسائر الوفود ، والجنود ، والتمييز (35) عليهم ، فميزوا وبرزوا ، وعجب (36) الناس من كثرة عددهم وعددهم واحتفالهم فى الزينة ، حتى زعموا أنهم لم يروا مثل تلك الجيوش حسنا وجمالا ، وعدة وكمالا ، واصطفت العساكر من باب القرمادين (37) الى الجهة المتصلة بأصل الجبل ، وذلك كان آخر جيش احتفل فيه المرابطون .

---

34 — ما زالت معروفة فى ضواحى تلمسان .
35 — التمييز فى الغرب هو عرض الجيوش عند المشارقة .
36 — فى ك : حتى عجب .
37 — انظر البيان المغرب — ط . تطوان 1963 — : 15/3 فيه (القرماديين)

قال ابن اليسع : حدثنى غير واحد من الموحدين قال : لما نزلنا من جبل تلمسان نريد بلاد زناتة (38) ، تبعنا المرابطون ، فتلاقينا معهم ، قال : فصنعنا دارة مربعة فى البسيط ، جعلنا فيها من جهاتها الأربع صفا من الرجال بأيديهم القنا الطوال ، والطوارق المانعة ، ووراءهم أصحاب الدرق والحراب صفا ثانيا من ورائهم ، ووراءهم أصحاب المخالى فيها الحجارة ، ووراءهم الرماة بقوس الرجل ، وفى وسط المربعة الخيل ، فكانت خيل المرابطين اذا دفعت اليهم لا تجد الا الرماح الطوال الشارعة ، والحراب والحجارة والسهام الناشرة ، فحينما تولى من الدفع وتدبر ، تخرج خيل الموحدين من طرق تركوها ، وفرج أعدوها ، فتصيب من أصابت ، فاذا كرت عليهم دخلوا فى غاب القنا ، وكان هذا اليوم يعرف بيوم منداس ، فقد غيه من جيوش المرابطين ما لا يحصى ، وفى ذلك اليوم ظهر أمر عبد المؤمن بن على ، وكثر جمعه ، وكان من أعظم ما تأيد به عبد المؤمن على المرابطين قيام أهل الاندلس عليهم ، لكونهم أخلوها من حماتها وأسلحتها ، والفساد الاكبر على المرابطين ، نسخ الامر بأمر غيره ، فكانوا يكتبون اليوم شيئا ، وغدا ينسخونه بغيره ، فيسخر منهم جنودهم ورعاياهم .

وقد كان تاشفين بنى حصنا بمقربة من وهران على شاطى البحر ، وحصنه واتخذه ملجأ ، وأوعز لقائد اسطوله بالمرية أبى عبد الله بن ميمون أن يجهز له عشرة أجفان غزوية (39) تكون

38 — فى د : بلاد تلمسان زناتة ، وفى ك : جبل زناتة .

39 — فى د : حربيــة .

بمرسى هذا الحصن معدة لحادث يحدث عليه ، وان ألجأته ضرورة الى الجواز الى الاندلس جاز ، ثم ان الموحدين والمرابطين انتقلوا من جهة تلمسان ، ونزل عبد المؤمن بالجبل المطل على وهران ، فتبعه تاشفين بمحلته ، ونزل بخارج وهران ، وكانوا يحاربون كل يوم ، دام ذلك بينهم شهورا كثيرة ، ولم يزل حال الموحدين فى علو وظهور كل يوم ، وحال اللمتونيين فى ادبار لايتم لهم أمر ، ولم ينجح لهم تدبير .

ولما استقر تاشفين بوهران ، تقلصت حاله تقلص الظلال ، وصارت أموره كلها الى الاختلال ، وضاقت به الحال ، وعاين عزم الموحدين عليه ، أيس من الحياة ، والتجأ الى الحصار ، بعد أن كان له فى ممارسة الحروب أربع سنين وتسعة أشهر ، لم يستقر فيها ببلد ، ولا اجتمع بوالد ولا ولد ،وانه خرج من وهران على اختفاء واستتار ، وترك خيامه وعساكره بجهات وهران ، وصار منها الى الحصن الذى بناه على شاطىء البحر ، معه خاصته لينتقد حاله ويتشوف على الأجفان التى كان ينتظر وصولها من الاندلس ، فعلم به الموحدون فأحدقوا بالحصن من كل جانب ومكان ، وأشعلوا به النيران ، فلما جن الليل خرج تاشفين يطلب النجاة بنفسه ، فركب فرسه التى كانت تدعى بالريحانة ، وكانت مشهورة بالسبق . فتردى من حافة بعيدة المهوى ، يظن أن الارض وطيئة متصلة ، فلما أصبح وجد بأسفل الحافة ميتا على تلك الصورة (40) ، ولم يعلم بذلك عسكر المرابطين (41) ،

---

40 — انظر اخبار المهدى : 59 . البيان المغرب : 17/3 .

41 — فى د + هـ : المرابطين حتى جاءهم خبره ، فتفرقوا فى البلاد ، وتبددوا الاقطار على حسب ما تجتلبه القصص فيما بعد ، ان شاء الله تعالى ، كانت مدته . . . .

وقطع عنهم الماء ، ومات أكثرهم عطشا ، وحمل السيف على من بقى ضحى يوم عيد الفطر سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، بعد ثلاثة أيام من موت أميرهم تاشفين ، وكانت مدته من حين وفاة والده سنتين وشهرين ، وكانت وفاته فى شهر رمضان المعظم من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة . وولى بعده رحمه الله ابنه :

أمير المسلمين ابراهيم بن تاشفين

كنيته : أبو اسحق ، ولم يعقب .

ووزراؤه : جماعة من أشياخ المرابطين .

كان أبوه قد ولاه عهده ، وهو مقيم بوهران فى محاربة الموحدين ، ووجهه الى مراكش ، وأصحبه جماعة من لمتونة ، وذلك قبل وفاته بشهر ، فبويع له بحاضره مراكش لما مات أبوه بوهران ، وخالف عليه عمه اسحق بن على ، ونقض بيعته ، ودعا لنفسه ، ووقع الخلاف والتدابر بينهما الى انقطاع دولتهم ، ودخول الموحدين عليهم ، ولم ينهض بالملك بسبب استيلاء الموحدين على معظم البلاد بالمغرب .

ولما دخل عبد المؤمن وهران ، انصرف بعد ذلك الى تلمسان فملكها ودخلها عنوة ، وقتل أهلها وسبى حريمها ، ودخل كل واحد من الموحدين من الموضع الذى يليه ، فأخذ فيها من الاموال ما لا يحصى .

ذكر ابن اليسع أنه بلغ عدد القتلى الى مائة ألف ، أو أزيد ، ولما ملكها أقام بها سبعة أشهر ، ورحل منها الى جهة المغرب (42) ، فنزل على مدينة فاس ، وبها أحد أولاد على بن يوسف ، والمدبر لامرها والمشرف عليها أبو محمد الجيانى ، فاجتمعت عليه بها الوفود من كل جهة ومكان ، وبالغ فى حصارها ، وأقام محاصرا

42 — انظر اخبار المهدى : 60 — 61 . البيان المغرب : 19/3 .

لها نحو تسعة أشهر (43) ، وأهلها يقاتلونه خارج البلاد ؛ ومن أشد ما دهاهم به أن الوادى الذى يشق مدينة فاس سده عليهم ، وأمر الناس أن يسووا الحطب والخشب ، ويرفعوا التراب على ذلك سدا بعد آخر حتى احتبس الماء ، وحصر الوادى ، فصار الفحص كله بحرا ، وأقام الماء يرتفع الى أن صار بحرا تجرى فيه السفن ، استعان على ذلك بكثرة الآلات والعلم ، واتساع الفحص، ثم هدم السد (44) بمرة ، فوقع عليهم السور ، وقد كان عبد المؤمن يريد أن يدخلها ، فوقف له أهل فاس على متهدم السور وقاتلوه من خارجها ، ولما طال عليهم الحصار ، وجه الجيانى مشرفها فى خفية لعبد المؤمن فأمنه وأدخله من باب الفتوح ، وذلك أن واليها من المرابطين طالبه (45) بمال ، وضيق عليه ، فلم يكن فى وسعه أن يعطيه له ، فحينئذ عمل الحيلة فى دخول عبد المؤمن ، وخروج صاحبها عنها ، واستولى الموحدون على فاس ، ورحل عبد المؤمن منها الى سلا .

وقد كان عبد المؤمن بعث ستة آلاف فارس من رقانة ؟ ومكلاتة ، وزناتة ، وكزناية الى محاصرة مكناسة ، فبنوا عليها سورا . وحفروا أمامه حفيرا ، فكأن أهلها فى سجن لا يقدرون على الخروج منها شرقا ولا غربا ، أداروا السور عليهم ، وتركوا فيه أبوابا يدخلون منها لقتال أهل البلد ، فتركهم عليها ، وانصرف

43 — انظر اخبار المهدى : 62 — 63 ، وعنده ان حصار فاس دام سبعة اشهر ، انظر ايضا البيان المغرب : 19/3 .

44 — فى د + ك + ه : الجسور .

45 — فى د : وذلك ان صاحبها المذكور طلبه ، ويتوافق ما اثبتناه مع ما جاء عند البيذق : 62 . وابن عذارى : 19/3 . وباب الفتوح معروف ما زال يحمل نفس الاسم فى فاس .

الى سلا ، ولما وصل الى سلا تغلب عليها من ساعته ، وفتحها قبل نزوله ، وطاعت له قصبتها التى كان بناها الأمير تاشفين فى الرباط ، وأخذ فى الحركة الى مراكش ، واستعد لها غاية الاستعداد ، وكان بها ولد تاشفين المتأمر بعده ، حسبما يذكر بعد ان شاء الله .

ذكر حصار مراكش

ولما كان فى محرم سنة احدى وأربعين وخمسمائة ، توجه عبد المؤمن الى حاضرة مراكش ، مقر خلافة (46) المرابطين ، ووصلت جيوشه اليها ، ونزل بجبل بقربها يعرف بجبل جليز (47) ، وهو جبل صغير بنى عليه مدينة ، استند اليها وبنى فيها مسجدا وصومعة طويلة يشرف منها على مراكش ، ولما أكمل المدينة بالبناء ، ونزلت كل قبيلة فى الموضع الذى حد لها ، زحفوا (48) بجمعهم لمراكش ، وقد كان كمن لهم الكمائن ، وأقام هو بالمنظرة يبصر أحوالهم ، فانهزم لهم الموحدون يجرونهم الى الكمائن ، ولما وصلوا الى مقربة سور المدينة التى بناها عبد المؤمن بالجبل المذكور ، وعلم عبد المؤمن بأن أكثر أهل مراكش من الفرسان والرجالة خرجوا ، أمر بضرب الطبول ، وخرجت الكمائن ، فمات فى ذلك اليوم من أهل مراكش ما لا يحصى ، واتبع السيف سائرهم الى الابواب ، فقتل بعضهم بعضا بالازدحام ، وطال الحصار عليهم ، واشتد الجهد بهم ، ولكثرة خيلهم ورجلهم نفذ طعامهم ،

46 — كذا مجازا .
47 — يطل هذا الجبل الآن على مدينة مراكش من الجهة الشمالية ، وبه سميت احياء المدينة العصرية .
48 — فى د : رحلوا .

وفنيت مخازنهم حتى أكلوا دوابهم ، ومات منهم بالجوع ما ينيف على مائة وعشرين ألفا ، ولما طال عليهم الحصار ، واشتدت أحوالهم ، هلكوا جوعا حتى أكلوا الجيف ، وأكل أهل السجن بعضهم بعضا ، وعدمت الحيوانات كلها ، والحنطة بأسرها ، واختبرت المخازن فلم يوجد بها شيء ، وعجزت عساكر اللمتونيين حينئذ عن الدفاع والامتناع ، بضعف العدد والعدة ، وكثرة الضيقة والشدة ، ففتحت مراكش حينئذ على ما يأتى وصفه ، وذلك أنه لما كان يوم السبت لثامن عشر لشوال سنة احدى وأربعين وخمسمائة — على ما نقله ابن اليسع ، أنه قال : حدثنى من أثق به ، أنه لما أراد الله فتحها ، داخل جيش الروم الذين كانوا بداخلها عبد المؤمن ، وأستأمنوه فأمنهم ، واتفقوا معه على أن يدخلوه من الباب المعروف بباب أغمات .

قال البيذق : وأمر عبد المؤمن بعمل السلالم للسور ، وقسمها على القبائل (49) ، وأحدقوا بالمدينة ، فدخلت هنتاتة وتينمال من جهة باب دكالة (50) ، ودخلت صنهاجة ، وعبيد المخزن (51) من باب الدباغين (52) ، ودخلت هسكورة وغيرها من جهة باب أغمات ، فتسنموا الاسوار ، ودخلوا البلد بالسيف ، وامتنع الامير أبو اسحق ابراهيم بن تاشفين مع المرابطين وجملة

---

49 — فى د : اهل محلته ، والذى عند البيذق : 64 ، موافق لما جاء فى المتن .

50 — باب فتح فى سور المدينة من الجهة الشمالية الغربية .

الاعيان بداخل القصبة المعروفة بقصر الحجر (53) ، وهو حصن حصين ، وتمادى القتال من البكرة الى وقت الزوال ، وطلبوا الآمان فلم يسعفوا ، ودخلوا عليهم ، فأخرجوا الامير أبا اسحق، وأخرجوا معه جملة من الامراء وأبنائهم ، ومن كان معهم من لمتونة ، الى موضع المحلة بجبل جليز ، وان الامير أبا اسحق لما وصل الى عبد المؤمن ، رق له وأشفق عليه لصغر سنه ، وهم أن أن يعفو عنه ويسجنه . فقال له بعض أشياخ الموحدين : أتحب (54) أن تربى لنا فرخ سبع ، ولما قدم الامير أبو اسحق ابراهيم بن تاشفين ، جعل يرغب لعبد المؤمن فى ابقائه ، فتفل فى فى وجهه الامير سير بن الحاج ، أحد أشياخ المرابطين ، وقال له : أترغب الى أبيك ، أن مشفق عليك ، اصبر صبر الرجال ، فقتل وقتل كل من أخرج معه .

قال ابن اليسع : وقتل فى ذلك اليوم ، مما صح عندى ، ما نيف على سبعين ألف رجل ، واستمر القتل على أهل البلد ثلاثة أيام ، وكانت مدته من حين وفاة أبيه ، الى دخول مراكش سنتين ، وزيادة أيام ، ووفاته فى شوال سنة احدى وأربعين

---

51 ــ المخزن مصطلح مغربى يراد به الدولة الحاكمة من رجال ادارة وسواهم .

52 ــ اسمه الآن باب الدبغ ، انظر السعادة الابدية ، ط . ثانية : 10 ــ 12 .

53 ــ وتعرف احيانا باسم دار الحجر ، بناها ــ كما سبق ذكره ــ على بن يوسف بن تاشفين قصرا ، وقطع حجرها من جبل ايجليز ، ودعيت بهذا الاسم ، لان الغالب على مراكش البناء بالطين والطوب ، ويعتقد أن المكان الذى فيه الآن قبر يوسف بن تاشفين بمراكش ، على مقربة من ساحة الفناء ، هو قصر دار الحجر

54 ــ فى د : اتريد .

وخمسمائة (55) ، وبموته انقرض ملك أهل اللثام ، والملك لله الواحد القهار ، ويذكر أن الاستاذ أبا عبد الله بن وردى رأى (56) فى النوم قبل انقراض المرابطين بيسير قائلا يقول :

ألا يا أيهـا المغـرور ويحك لا تنـم
فللـه فى ذا الخلق أمـر قـد انبرم
فلابد أن أن يرزوا بأمر يسوءهم (57)
فقد أحدثـوا جرما على حاكـم الامم

وقال بعض أهل علم الحدثان : انقراض دولة بنى تاشفين المعروفين بالمرابطين ، كسلك انبرم أزيد ما يكون ، عندها يهون .

وقال فيهم القاضى أبوبكر بن العربي فى تأليفه « عارضة الاحوذى فى شرح سنن الترمذى » : المرابطون قاموا بدعوة الحق ونصرة الدين ، وهم حمـاة المسلمين الذابـون (58) عنهـم ، والمجاهدون دونهم ، ولو لم يكن للمرابطين فضيلة ولا تقدم ، ولا وسيلة ، الا واقعـة الزلاقة ، التى أنسى ذكرهـا حروب الأوائل ، وحرب داحس والغبراء مع بنى وائل ، لكان ذلك من من أعظم فخرهم ، وأربح تجرهم ، كانت مدتهم من أول ظهورهم تسعين سنة ، وبالاندلس ستة وخمسين سنة ، فسبحان مـن لا يبيد ملكه ، ولا يفنى دوامه ، لا اله الا هو العلى العظيم (59) .

---

55 ــ انظر اخبار المهدى : 65 . البيان المغرب : 24/3 .
56 ــ فى د : انشـد .
57 ــ فى د : يسومهم .
58 ــ فى د : الزائدون .
59 ــ بحثنا الاجزاء المطبوعة وهى ثلاثة عشر من العارضة فلم نجد فيها النص اعلاه ... !

وقد نظم الفقيه أبو طالب عبد الجبار الشقرى (60) فى ارجوزته دولة المرابطين ، فقال :

فاذ أراد اللــه نصر الديــن	استصرخ الناس ابن تاشفين
فجاءهم كالصبح فى اثر غسق	مستدركا لما نبقى مــن رمق
أتى (61) أبويعقوب كالعقاب	فجرد السيف عــلى الرقــاب
وواصل السير الى الزلاقــة	وساقــه ليومهــا ما ساقــه
لله در (62) مثلها من وقعة	قامت بنصر الدين يوم الجمعه
وثل للشرك هنــاك عرشــــه	لم يغن عنه يومه أذفنشــــه
واتصــل الامر عــلى النظام	وامتد ظل الله فى الاســـلام
وانصرفت على العــدو الكرة	وأمــن الجمــع كأولى مــره
فالآن خيــل اللــه فى العدو	تعيــث فى المســاء والغــدو
ثم ولــي على بــن يوســف	مقتديــا حكــم أبيه يقتفــى
وبعــد ذاك الليــث تاشفــين	غصب ظلمــا ملكه المكـــين
وأتـــت الفتـــن والأرزاء	واستحكمت فى أهلها الأهواء

---

60 ــ فى ك : ابن الشقرى ؛ وقد عرف بالشقرى نسبة الى جزيرة شقر بالاندلس : وقد ذكره ابن بسام فى الذخيرة ــ القسم الاول . المجلد الثانى . ط . القاهرة : 1942 ؛ ص : 401 ، وقال : كان يعرف بالمتنبى ، ابرع اهل وقته ادبا ، واعجبهم مذهبا ، واكثرهم تفننا فى العلوم ، ثم اورد ارجوزته فى التاريخ ص : 405 ــ 431 ، وجاءت الابيات التى ذكرت فيها دولة المرابطين فى آخر الارجوزة ، انمـــا هناك بعض الاختلاف بين رواية صاحب الحلل ورواية ابن بسام ؛ ثـــم ان ابـــن بســـام لـــم يذكـــر الابيـــات الثلاثـــة الاخيـــرة ، التـــى ارخـــت للمرابطـــين بعد علـــى بن يوسف . انظر ايضا الخريد للعماد قسم الاندلس : 110 ؛ المغرب لابن سعيد : 371/2 . نفح الطيب ــ ط . بيروت : 182/3 .

61 ــ فى د : واتى ، وهو مطابق لرواية ابن بسام .

62 ــ فى ط . علوش : لله در ، يالها ، وما اثبت فى المتن جاء فى د + ك . وهو موافق لرواية ابن بسام .

والله بالمرصاد مـن ورائهـم   وهو المرجى لدفاع دائهـم

ولما توفى ابراهيم بن تاشفين ، دخلت مراكش بالسيف حسبما تقدم قبل هذا ، وولى فيها بعده عبد المؤمن بن على ، على حسب ما يأتى بعد ان شاء الله تعالى ، وصلى الله على سيدنا محمد وسلم .

الخليفـة عبد المؤمـن بن عـلى

نسبـه : هو عبد المؤمن بن على بن علوى بن يعلى بـن مروان بن نصر بن على بن عامر بن الامير أبو موسى بن عبد الله بن يحيى بن ورزايغ بن صطفور بن ينور بن مطماط بن خزرج بن قيس بن عيلان بن مضر ، هكذا نسبه كثير ممن له عناية بهـذا الشـأن .

وحكى بعضهم أنه نقله على هذه الصورة من خط حفيـده السيد أبى محمد عبد الواحد (63) .

كنيتـه : أبو محمد ، لقبه الموحدون بالخليفة أمير المؤمنين .

بنـوه : الذكـور نحو سبعـين .

ووزراؤه : ابنه السيد أبو حفص عمر ، وعبد السـلام الكومى ، وأبو جعفر بن عطية القضاعى (64) الكاتب . وقد تقدم ذكره وتوليته فى اسم المهدى ، ولما توفى المهدى ، حسبما تقدم

---

63 — اورد البيذق فى المقتبس : 12 — 13 ، ما قيل بصدد نسب عبـد المؤمن ، وهو يختلف بعض الاختلاف عما جاء هنا .

64 — انظر البيان المغرب : 3/26 — 27 .

قبل ، تفاوض بقية أصحابه وهم أربعة ، فيمن يكون امامهم من بعده ، فوقع اتفاقهم على عبد المؤمن ، لما كانوا يشاهدونه من تعظيم المهدى له بمحضر أصحابه، وجميع الموحدين، ويقبل عليه، ويستبشر بكلامه ، فاتفقوا عليه ، وقدموه ، فأقام فيهم مسودا عندهم ، سائسا لامرهم ، مدبرا لملكهم ، وحدث بينه وبين المرابطين ما تقدم ذكر البعض منه .

ولما كمل اجماعهم فى تقديمه سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، وبايعه أهل الخمسين ، وسائر الموحدين ، تشاور معهم على أى جهة تكون حركته (65) الاولى ، فاتفق رأيهم على قصد تادلا وأحوازها ، فتوجهوا نحوها ، وطاعت له ، ومنها الى درعة فملكها ، ولم تزل من حين ولايته أمور الموحدين تنمو ، وأحوالهم تعظم ، وهم فى كل يوم يظهرون على المرابطين ، الى أن كان ما تقدم من استيلائهم على بلاد المغرب ، وحصر حاضرة (66) مراكش ، ودخولها عليهم بعد ذلك ، حسبما تقرر فى موضعه .

قال ابن صاحب الصلاة : ولما تم لعبد المؤمن ، فتح مراكش ، ودخلها ، رجع منها الى محلته ، وجعل الامناء على أبوابها مدة من شهرين ، فاجتمع فيئها وأموالها (67) ، فقسمها على الموحدين ، وقسم عليهم ديارها ، وبيع عيال مراكش ، وأولادهم بيع العبيد ، الا زينب بنت على بن يوسف ، فاحترمت عن البيع ،

---

65 — فى ك : حركتهم .
66 — فى ك : حضرة .
67 — فى د : ما فيها من الاموال ، وفى ك : واجمع فيها اموالها .

لمكان زوجها الأمير يحيى بن اسحق المسوفى (68) ، المعـــروف بونزمار ، لكونه ترك قبيلته ، ودخل دعوة عبد المؤمن ، فاحترمت داره من الفيء .

واستولى عبد المؤمن عــلى خزائن عــلى بن يوسف ، وذخائر لمتونة ، مما يقصر على وصفه اللسان ، ولا يأتى علــى شرحه البيان ، وبقيت مراكش ثلاثة أيام لا يدخلها داخــل ، ولا يخرج منها خارج ، وأبى الموحدون دخولها ، لان المهدى كان يقول لهم : لا تدخلوها حتى تطهروها ، فسأل الموحــدون الفقهاء عن ذلك ، فقالوا لهم : تبنون أنتم مسجدا آخر ، فكان ذلــك .

فبنى الخليفة عبد المؤمن بدار الحجر مسجدا آخر ، جمع فيه الجمعة ، وشرع فى بناء المسجد الجامع ، وهدم الجامع الذى كان أسفل المدينة الذى بناه على بن يوسف .

ولما أكمل عبد المؤمن بناءه صنع فيه نفقين (69)، يدخل من القصر اليهما ، ومنهما الى الجامع، لا يطلع عليه أحد ونقل اليه منبرا عظيما كان قد صنع بالاندلس ، فى غاية الانتقان ، قطعاته عود وصندل أحمر وأصفر ، وصفائحه من الذهب والفضة (70) ، وصنع مقصورة من الخشب لها ستة أضلاع ، تسع أكثر من ألف رجل ، وكان المتولى لصنعة خروجها رجل من أهل مالقة ، يقال له الحاج يعيش ، وهو الذى تولى النظر فى مدينة جبل الفتح على

68 — فى د + ك : اللمتونى .
69 — فى المطبوع - سباباط - وقد اعتمدنا ما جاء فى المخطوطات لموافقته المعنى
70 — كذا فى الاصل ، وهو غريب لمنافاته عقائد الموحدين .

حسب ما يأتى ذكره ، فى مدة الخليفة عبد المؤمن بن على .

وكيفية هذه المقصورة أنها وضعت على حركات هندسية ترفع بها لخروجه ، وتخفض لدخوله ، وذلك أنه صنع على يمين المحراب باب داخله المنبر ، وعن يساره باب داخله دار فيها حركات المقصورة والمنبر ، وكان دخول عبد المؤمن وخروجه منها ، فكان اذا قرب وقت الرواح الى الجامع يوم الجمعة ، دارت الحركات بعد رفع البسط عن موضع المقصورة ، فتطلع الاضلاع به فى زمان واحد لا يفوت بعضيا بعضا بدقيقة ، وكان باب المنبر مسدودا . فاذا قام الخطيب ليطلع عليه ، انفتح الباب وخرج المنبر فى دفعة واحدة ، بحركة واحدة ، ولا يسمع له حس ، ولا يرى تدبيره ، يقول فيها الكاتب أبوبكر ابن مجبر يحيى الفهرى من قصيدة طويلة (71) :

طورا تكون بمن حوته محيطه	فكأنها سور من الاسوار
وتكون طورا عنهم مخبوءة	فكأنها سر من الاسرار
وكأنها علمت مقادير الورى	فتصرفت لهم على مقدار
فاذا أحست بالأمير يزورها	فى قومه قامت الى الزوار
يبدو فتبدو ثم تخفى بعده	فتكون كالهالات للأقمار

وان الخليفة عبد المؤمن غرس خارج مراكش بستانا طوله ثلاثة أميال ، وعرضه قريب منه ، فيه كل فاكهة تشتهيها الانفس ، وجلب اليه الماء من أغمات ، واستنبط عيونا كثيرة .

71 — هو ابو بكر يحيى بن مجبر ، من اهل بليش ، توفى بمراكش 582 ، انظره فى بغية الملتمس .

قال ابن اليسع : وما خرجت أنا من مراكش فى سنة ثلاثة وأربعين وخمسمائة ، الا وهذا البستان الذى غرسه عبد المؤمن ، يبلغ مبيع زيتونه ، وفواكهه ثلاثين ألف دينار مؤمنية ، على رخص الفواكه بها .

ولما توالى عليه الفتح ، واستوثق له الامر ، قام عليه قائم ببلاد السوس الاقصى ، وهو محمد بن عبد الله بن هود الماسى ، وتسمى بالهادى ، وادعى الهداية ، اقتداء بالمهدى ، محمد بن عبد الله ابن تومرت ، وكان قصارا ببحر سلا ، فأقبل الناس عليه من كل مكان ، واجتمعوا عليه اجتماعا ، طار به الذكر فى الآفاق ، وقامت بدعوته أمم لا تحصى ، واتصلت دعوته فى جميع أقطار [illegible] ، حتى لم يبق منها الا مراكش وفاس ، وخالفت عليه سائر البلاد ، ورفضوا دعوة الموحدين ، وكاد يضمحل وينقرض ما قاتلوا عليه منذ خمس وعشرين سنة ، فوجه اليه عبد المؤمن عسكرا ، فهزمه الماسى المذكور ، وعاد اليه خاسرا مهزوما ، ووجه اليه جيشا آخر ، وقدم عليه الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاتى ، ومعه جملة من الموحدين ، وجملة من الرماة ، وطائفة من النصارى ، وغيرهم من الاجناد ، واستعدوا للقائه بالسوس غاية الاستعداد ، فانهزم وقتل هو وكثير من أهل عسكره ، وتخلص الملك بعد ذلك بالمغرب لعبد المؤمن (72) .

72 — انظر اخبار المهدى : 69 . البيان المغرب : 3/27 — 28 .

وفى أثناء ذلك قاتل عبد المؤمن قبيلة دكالة (73) ، فانحازت الى الساحل فى نحو عشرين ألفا فارس ، ومائتى ألف راجل ، وسار اليهم عبد المؤمن فى أمم لا تحصى من الخيل والرجالة والرماة ، وكان أهل دكالة لا رأى عندهم ، ولما اصطفوا وتأهبوا للقتال ، جاءهم من ناحية أخرى غير الناحية التى اعتقدوها ، فانحل نظامهم ، وفل جمعهم ، وخرجوا عن وعر الموضع الذى كانوا به ، فألجأهم السيف الى البحر ، فقتل أكثرهم فى الماء ، وأخذت ابلهم ، وغنمهم ، وأموالهم ، وسبى أولادهم ، وانتهى البيع فيهم الى بيع المرأة بدرهم ، والغلام بنصف درهم .

ولما تخلص له ملك المغرب ، وصلته بيعة من بعض المواضع بجزيرة الاندلس ، وأول بيعة وصلته منها ، وأول وفد وفد عليه أهل اشبيلية ، ولذلك اعتنوا بها فى مدتهم ، وصيروها حاضرتهم بالاندلس ، وكان من الوفد القادمين عليه القاضى أبوبكر بن العربى المعافرى ، والخطيب ابوعمر وبن حجاج والكاتب أبوبكر بن الجد ، وأبو الحسن الزهرى ، وأبو الحسن ابن صاحب الصلاة ، وأبو بكر بن السجره ؟ والباجى ، والهوزنى ، وابن القاضى شريح ، وعبد العزيز الصدفى ، وابن السيد ، وابن الزاهر ، وغيرهم من وجوه اشبيلية فى ذلك

---

73 ــ دكالة عند بعض النسابين من صنهاجة ، كانت منازلها فى القديم على سيف البحر بين وادى ام الربيع ، ووادى تنسيفت ، ومنذ القرن السادس داخلت قبائل دكالة قبائل من هلال واحلافها ، فاستعربت دكالة ، ثم انقسمت بعد ذلك الى قسمين : دكالة الحمراء ، وهى الجنوبية ، مساكنها حول آسفى ، وتسمى اليوم عبده ، ودكالة البيضاء ، وهى الشمالية التى ما تزال تحتفظ باسم دكالة

العيد ، فأذن لهم فى السلام عليه ، وتقدم القاضى أبو بكر بن العربى ، وخطب خطبة بليغة ، استحسنها الخليفة عبد المؤمن ، ثم تلاه الفقيه أبوبكر بن الجد بخطبة ثانية ، فأحسن وأجاد ، ودفعوا له بيعة أهل اشبيلية ، مشهودة بخطوطهم ، فقبلها منهم ، واستحسن فعلهم ، ثم ان الخليفة عبد المؤمن سأل ابن العربى عن المهدى ، هل رآه قط ، أو لقيه فى مجلس الامام أبى حامد الغزالى ببغداد ؟ فقال له : لم ألقه ، وانما سمعت به ، وان الشيخ كان يقول لابد من ظهوره ، وفى اياب هذا الوفد من وجهته هذه مرض ابن العربى ، وتوفى رحمه الله ، ودفن بجبانه فاس (75) .

ولما تم (76) لعبد المؤمن ملك المغرب شرع فى اعمال الحركة الى افريقية ، واستيلائه على مملكة الامراء من بنى حماد الصنهاجيين ، فحشد جميع الموحدين ، وخرج من مراكش ، واحتل بسبتة ، وأظهر الجواز الى الاندلس للجهاد ، واستدعى وجوه الاندلس ، واستوضح مسائلهم ، ثم رحل منها مظهرا العودة الى حاضرة مراكش ، وفى أثناء ذلك قسم عسكره على ثلاثة : وجه ثلثا واحدا الى الاندلس مع ابنه السيد أبى حفص ، وعاد هو بالثلثين .

قال الامام أبو يحيى بن اليسع : ان الذى تحققته ، أن خيام السيد أبى حفص بلغت فى هذه الوجهة الى ستين ألف

---

74 — انظر اخبار المهدى : 69 .
75 — فى ك : بخارج فاس ، وقبر ابن العربى ما زال معروفا بفاس ، ويبدو ان خبر سؤال عبد المؤمن لابن العربى مخترع ذلك ان رجوع ابن العربى من المشرق كان قبل رحلة المهدى بسنوات . . . .
76 — فى د : ولما تخلص .

خيمة ، ولما وصل طنجة ، أخذ على قصر عبد الكريم (77) ، وجعل مدينة فاس على يمينه ، وأخذ قاطعا (78) الى الشرق ، ونادى مناديه فى المحلة : أيها الناس من تكلم منكم بكلام معناه ، الى أين هذا السفر، فجزاؤه السيف، ثم تحرك الى بجاية، مستعجلا فى الرحيل ، فما شعر صاحب بجاية ، العزيز بالله يحيى بن ناصر ، من ملوك بنى حماد ، حتى وصله عامله بالجزائر ، وقد خرج منها ، ودخلها الموحدون ، وقد كان بين الخليفة عبد المؤمن وبين ابن حمدون ، وزير صاحب بجاية كتب ومداخلة ، فلما سمع به ، فتح له باب بجاية ، وفر من قصبتها ابن حماد الى قسنطينة ، وحاصره بها الموحدون ، فنزل منها على أمان ، وصار مع الخليفة عبد المؤمن الى حاضرة مراكش ، فأعمره الديار ، وأقطعه الضياع ، وأقام هو وبنوه تحت اكرام ومبرة الى أن انقرضوا .

ولما استقر ابن حماد بمراكش ، تخامل وتجاهل ، وشغل نفسه بالصيد ، واستعمل شباك الحديد لصيد الاسد ، وكان يهديها للخليفة عبد المؤمن ، فيثيبه عليها ، وانه صاد فى بعض الايام شبلا صغيرا ، وأدخله على الخليفة فى مجلسه ، فأمر بحله من عقاله ، فمشى الشبل بين الناس يخترق الصفوف ، حتى وصل الى بين يدى الخليفة ، فربض وسكن لا يتحرك من موضعه، واتفق أن أهدى له فى ذلك اليوم زرزور يتكلم بأنواع الكلام ، فارتجل الكاتب أبو على الاشيرى أبياتا فى صفة الحال فقال :

---

77 — قصر عبد الكرم هو ما يعرف اليوم فى المغرب باسم مدينة القصر الكبير .

78 — فى د : قاصدا .

أنس الشبل ابتهاجا بالأســد	ورأى شبــه أبيــه فقصــد
ودعــا الطائــر بالنصر لكــم	فقضى حقكم لما وفــد (79)
أنطــق الخالــق مخلوقــه	بالشهادات فكــل له قد شهــد
أنــك القائــم بالامــر لــــه	بعدما طال على الناس الامد (80)

واستولى عبد المومن على افريقية ، وقدم عليها الشيخ أبا محمد بن أبى حفص (81) ، وعاد الى حاضرة مراكش ، وقد تهيأ له فتح لاكفاءله ، وكان الخليفة عبد المؤمن بارا بمن انضوى اليه ، عارفا بأقدار الناس ، مكرما لاعيانهم وأهل البيوتـــات منهم ؛ عالما بمقادير العلماء ، ينزل الناس على قدر منازلهم ورتبهــم ، ووقــف الحفــاظ لحفــــظ « كتاب الموطأ » هــو « وكتاب أعز ما يطلب » وغير ذلك من تواليف المهدى ، وكان يدخلهم كل يوم جمعة بعد الصلاة داخل القصر ، فيجتمع الحفاظ فيه ، وهم نحــو ثلاثة آلاف كأنهم أبناء ليلــة ، من المصامدة وغيرهم ، قصد بهم سرعة الحفظ والتربية على ما يريده ، فيأخذهم يوما بتعليم الركوب ، ويوما بالرمى بالقوس ، ويوما بالعوم فى بحيرة صنعها خارج بستانه مربعة ، طول تربيعها نحو ثلاثمائة باع ، ويوما يأخذهم بأن يجذفوا على قوارب وزوارق صنعها لهم فى تلك البحيرة ، فتأدبوا بهذه الآداب ، تارة بالعطاء ، وتــــارة

---

79 — فى د + ك : ورد .

80 — اورد صاحب روض القرطاس — ط . الرباط ، 1973 — ص : 184 — 186 ، قصة طريفة حول هذه الحادثة ، مناقضة لمــا جاء هنا .

81 — انظر اخبار المهدى : 80 — 81 المن بالامامة — ط . بيروت 1964 : 120/2 — 126 . روض القرطاس : 197 — 198 . البيان المغرب : 38/3 — 41 .

بالأدب ، وكانت نفقتهم وسائر مؤنتهم من عنده ، وخيلهم وعدتهم كذلـك .

ولما كمل (82) له هذا المراد فيهم ، عزل بهم أشيـاخ المصامدة عن ولاية الاعمال والرئاسة ، وقال : العلماء أولى منكم ، فسلموا لهم ، وأبقاهم معهم فى المشورة ، وقد كان ظهر له حين ذلك ثلاثة عشر من أولاده ، كلهم حفاظ خطاطون ، وقد كملت فيهم الصفات التى رباهم عليها ، وتخلقوا بالخصال الحميدة ، فأشار عليه أشياخ الموحدين بتقديمهم (83) ، وقالوا له : يا أمير المؤمنين ، أبنـاؤك (84) أولى بالتقديـم ، فأظهر الامتنـاع ، ولم يزالوا به حتى ولاهم الاعمال ، وجعل كل واحد منهم على اقليم ، وقدم أبناء المشيخة تحت أيديهم ، فولى السيد أبا حفص عمر عمل تلمسان ، ووجه معه الشيخ أبا محمد بن وانودين (85)، والكاتب أبا الاصبغ بن عياش ، علـى جهة التأديب والتعليم ، وولى السيد أبا سعيد عثمان غرناطة ، ووجه معه الشيخ أبا عبد الله بن سليمان ، والكاتب أبا الحسن بن هردوس ، وولـى السيد أبا محمد عبد الله بجاية ، ووجه معـه الشيخ أبا سعيد يخلف بن الحسين، والكاتب أبابكر بن حبيش، وولى أبا الحسن علي على فاس ، ووجه معه الشيخ أبا يعقوب يوسف بن سليمان ، والكاتب أبا العباس بن مضا ، وتوجه كل واحد من هؤلاء معهـم على جهة التدريب ، والتعليم لهم .

82 ـــ فى ك : تـم
83 ـــ فى ك : بتوليتهم .
84 ـــ فى ك : اولادك .
85 ـــ اسمه عبد الحق ؛ انظر بعضا مـن اخباره فى المـن بالامامـة : 177/2 ـــ 179 . البيان المغرب : 44/3 .

ذكر توجه الخليفة عبد المؤمن الى المهدية

كانت عادته فى أسفاره أن يرحل بعد صلاة الصبح ، بعد أن يضرب طبل كبير ، مستدير الشكل ، دوره خمسة عشر ذراعا ، منشأ من خشب ، أخضر اللون ، مذهب ، فاذا ضربت فيه ثلاث ضربات ، علم أنه طبل الرحيل ، فيرحل الناس ، وكان يسمع على مسيرة نصف يوم من مكان مرتفع فى يوم لا ريح فيه ، وبلغ جيشه فى هذه الوجهة الى خمسة وسبعين ألف فارس ، ومن الرجالة الى خمسمائة ألف ، وكان العسكر منقسما على أربعة عساكر ، لكل عسكر يوم يختص به ، وماء ينزل عليه ، مسيره فى كل يوم مرحلة ، الى وقت الغداة ، وتنزل الجيوش مريحة الى يوم آخر ، قطع من سلا الى تونس فى ستة أشهر ، وهى مسيرة سبعين (86) يوما للمجد الراكب .

وكان اذا ركب ، اجتمع اليه (87) أعيان الناس ، فيدعون له ، ويتقدم الناس ، ويمشى أمامه على بعد منه مقدار مائة فارس بمصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وهو الذى كان عند الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد ، من خلفاء بنى أمية بالاندلس ، وكان فى زمن الخليفة عبد المؤمن بجامع قرطبة ، فبعث اليه ، وجىء به ، فأنفق عليه أموالا عظيمة ، وصنع له تابوتا عجيبا ، وغلفه بغلاف صفائحه من الذهب ، ورصعه بالياقوت الأحمر ، وكان من أغرب ما فيه الحافر الاحمر من الياقوت الذى

86 — كذا . وفيه ما فيه .
87 — فى د : عليه .

هو على شكل حافر الفرس ؛ وكان فيه نفيس الدر والياقوت والزمرد ، وكل ذخيرة حصلت عند المرابطين ، وعند بنى حماد الصنهاجيين ، وعند بنى هود ؛ وعند بنى عباد ، ولما أكمله صنع له هودجا يحمل فيه على نجيب ، وعلى الهودج أربع علامات حمر ، ويتبعه هو وابنه السيد أبو حفص وراءه . لا يوازيه أحد ، وأبناؤه الآخرون وراء أخيهم أبى حفص ، لا يوازونه ، الا الأقرب من أبى حفص السيد أبو عبد الله ولى العهد (88) ، ثم تتبعه البنود والطبول ؛ ومن ورائها الامراء المدبرون لامر دولته ، ويتتابع الناس لاتزاحم بينهم ، فاذا كان وقت النزول ، نزلت كل قبيلة فى منزلها ، وعلى ترتيبها ، لا يتعدى أحد طوره ، لهم رتب معلومة ، قيدها أحد ، وحماها الخوف ، وفى محلته جميع الصناع وكل ما يحتاج اليه المسافر معهم ، كأنه مقيم بداره .

ولما نزل على تونس ، بعث اليه أهلها يسألونه الامان ، فأمنهم فى أنفسهم وأولادهم ، لا فى أموالهم ، ودخل الجيش المدينة ، وحصلت أموالهم كلها تحت التقييد ، وبيعت أمتعتهم ، وبنى بأعلاها قصبة أبراجها مثلة الزوايا ، أمامها فصيل من نوعه ، حال بين ساكنها (89) وبين البلد .

ورحل منها يريد المهدية ، وقد كان تملكها النصارى فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، استولى عليها صاحب جزيرة صقلية ،

88 — خلعه عبد المؤمن من ولاية عهده قبيل وفاته بوقت قصير ، وولى مكانه ولده الآخر المعروف بأبى يعقوب ، انظر المن بالامامة : 2/221 — 222 .

89 — فى د : سكانها .

وعلى صفاقس ، ودخل بونة وغيرها من ذلك الساحل ، وعادت الى المسلمين على يد الخليفة عبد المؤمن سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، فأقام عليها ستة أشهر وتسعة أيام ، وكان بداخلها من الافرنج ثلاثة آلاف ، وما للمهدية قتال من البحر ، وانما قتالها من شمالها ، ومن ناحية البر ، من مكان ضيق ، قد حصن بسور عرضه يمشى عليه فارسان ، ووصل اليهم مائة جفن من جزيرة صقلية بالاقوات (90) والعدد ، فخرج اليهم القائد أبو عبد الله بن ميمون باسطول الاندلس والمغرب ، وأقام على باب دار الصنعه (91) ، ولا دخول اليها الا من بابها ، فأخذوا الكثير منهم ، ولما طال الحصار ، خرج اليه ثمانية من أعيان الروم ، فقالوا له : يا أمير المؤمنين أنت الموجود عندنا فى كتبنا أنك تملك الارض ، وغرضنا هو الخروج عن البلاد (92) بأموالنا وأهلنا ، ونترك لك البلد (93) ، فكتب لهم (94) الامان بذلك، وخرجوا فى البحر الى صقيلية، ودخل الخليفة عبد المؤمن الى المهدية سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وانقادت اليه أقاليم افريقية كلها ، واستعمل على تلك الجهات عماله ، وعاد الى المغرب ، ولما وصل الى مدينة فاس ، توجه منها الى سبتة ، وجاز الى الاندلس (95) سنة خمس وخمسين وخمسمائة :

---

90 — فى ك : بالآلات .
91 — لم يمكن حتى الآن تحديد مكانها على ساحل المهدية .
92 — فى ك : البلد .
93 — فى د : البلاد .
94 — فى د : اليهم .
95 — انظر اخبار المهدى : 80 — 81 المن بالامامة : 120/2 — 126 . روض القرطاس : 197 — 198 . البيان المغرب : 38/3 — 41 . تاريخ الدولتين للزركشى — ط. تونس 1966 : 11 — 13. المونس : 116 — 117 . الحلل السندسية للسراج : 969/4/1 — 989 .

ونزل (96) بجبل الفتح ، وأمر ببناء الحصن الكائن الآن فيه ، على ما هو عليه ، وهو الذى اختط رسمه بيده ، وتولى بناءه ، ابنه السيد أبو سعيد عثمان ، صاحب غرناطة ، وكان ممن بناه وشوور فيه الحاج يعيــش المهندس ، وصنع بأعلــى الجبل رحى تطحن الاقوات .

وفى أثناء مقامه بالجبل (97) بعث ثمانية عشر ألف فارس من عسكره بالجبل الى أرض العدو ، وأتته وفود الاندلس من كل جهة ومكان ، واحتفل شعراء الاندلس فى القصائد ، وخطباؤها فى الخطب ، وكان فى وفد غرناطة الوزير أبو جعفر بن سعيــد العنسى ، وهو حدث السن ، فى جملة أبيه واخوانه ، فدخل معهم على الخليفة ، وأنشده قصيدة منها :

تكلم فقــد أصغى الــى قولك الدهــــر
ومــا لســواك اليــوم نهــى ولا أمــر

ورم كــل ما قــد شئتــه فهــو كائــن
وحــاول فلا بــر يفــوت ولا بحــــر

وحسبــــك هــذا البحــر فالا فانــــه
يقبــل تربــا داسه جيشــك المجــــر

ومـــا صوتـــه الا ســـلام مــــردد
عليــك وعــــن ثغر بقربــــك مفتـــر

96 ــ فى ك : واحتــل .
97 ــ فى د : بجبل الفتــح .

يجيش لكـــى يلقى أمامــك من غـــــدا
يعانــد أمــرا لا يقـــوم لـــه أمـــر
أطــل علـــى أهل الجزيـــــرة سعدهـــا
وصدقهـــا مـــن ذلك الخبـــر الخبـــر
فما « طـــــارق » الا لذلــــك مطــرق
« ولابـــن نصير » لـــم يكن ذلك النصر
همـــا مهداهـــا كـــى تحـــل بأفقهـــا
كما حل عند التم بالهالـــة البـــدر (98)

فلما جاز الى العدوة ، انصرف الى مراكش ، وقد كمل له الملك بافريقية ، مسيرة أربعة أشهر من المشرق الى المغرب ، ومن أطرابلس الى أقصى السوس ، ومن الجنوب الى الشمال ، فى أعرض المواضع من قرطبة ، الى سجلماسة خمسة وعشرين يوما .

وكانت مدته ثلاثا وثلاثين سنة ، وثمانية أشهر ، وخمسة وعشرين يوما ، من حين وفاة المهدى .

ومن شعره لما أقبلت حشود لمطة الى فحص مراكــش مع الامير أبى اسحق ابراهيم بن تاشفين بن أمير المسلمــين على بن يوسف ، وهزمهم الموحدون ، وغنموا لهم من الجمـــال نحو ثمانين ألفا ، هناه المشرف أبو محمد عبد الله الجيانى (99) ، بشعر أولـــه :

---

98 — قدم ابن صاحب الصلاة : 149 — 173 ، وصفا ضافيا لحفل جبل الفتح ، واورد القصائد التى القيت آنئذ ، لكنه اغفل هذه القصيدة .
99 — ذكره ابن عذارى فى البيان المغرب : 22/3 .

أضاءت لنا الايام واتصل النجح
كأن وجوه الدهر مسودة كلح

فأجابه الخليفة عبد المؤمن بقوله :

هو الفتح لا يجلو غرائبه الشرح
أصاب بنى التجسيم من باسه ترح
أتتنا به البشرى على حين غفلة
بمهلك قوم كان موعدها الصبح

وفاته برباط الفتح ، من سلا سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، واحتمل الى تينمال ، ودفن بجانب قبر المهدى ، رحمة الله عليهما ، وولى بعده ابنه (1) .

الخليفة يوسف بن عبد المؤمن

كنيته : أبو يعقوب ، وتلقب بأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين .

بنوه الذكور : ثمانية عشر ، كبيرهم يعقوب المنصور ، الوالى بعده .

ووزراؤه : أخوه السيد أبوحفص : وأبوالعلاء ادريس بن جامع .

جاز الى الاندلس : فى خلافته مرتين ، وهو الذى أمر ببناء المسجد الجامع باشبيلية ، وبناء الصومعة بها ، سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وأتمها ابنه يعقوب المنصور بعده ، وبنى

---

1 — انظر ابن صاحب الصلاة : 2/221 — 224 . روض القرطاس : 202 — 205 البيان المغرب : 3/55 — 58 .

أيضا دار صنعة الانشاء بسبتة على ما هى الآن عليه .

وفى جوازه الثانى الى الاندلس سنة ثمانين وخمسمائة ، دوخ بلاد غرب الاندلس . ونزل مدينة شنترين (2) وقاد له الجيوش أخواه شقيقاه : أبوحفص ، وأبوسعيد ، وولى بنيه قواعد الاندلس ، وملك من أطرابلس الى جزيرة شقر بالاندلس .

وكان فى مدته ، سنة احدى وسبعين وخمسمائة الطاعون بمراكش، ومات فيه منأولاد الخليفة عبد المؤمن: السيد أبوعمران، ثم أخوه السيد أبو سعيد ، ثم أخوهما السيد أبو زكريا صاحب بجاية ، والشيخ أبوحفص عمر بن يحيى الهنتاتى ، جد الملوك الحفصيين ، والقاضى أبو يوسف حجاج بن يوسف .

كانت خلافته (3) اثنتين وعشرين سنة ، وعشرة أشهر ، واثنى عشر يوما .

مولده بتينمال سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ، وفاته رحمه بنهر تاجة فى قفوله من غزاة شنترين على ظهر دابته ، واحتمل الى رباط الفتح من سلا ، فدفن به ، ثم احتمل منها الى تينمال ، فدفن لصق أبيه رحمهما الله ، وكتمت وفاته الى حين وصوله الى الى اشبيلية ، وولى بعده (4) :

---

2 — Santaren — مدينة كانت تعتبر من كور باجة ، وهى على جبل كثير العلو . الروض المعطار . ذكر بلاد الاندلس : 68 . الحلل السندسية : 1 — 98 — 99 .

3 — فى د : مدته

4 — انظر البيان المغرب : 3/135 — 140 . روض القرطاس : 213 — 215 . تاريخ الدولتين : 14 .

الخليفة يعقوب المنصور

كنيته : أبو يوسف ، تلقب بالمنصور بالله

وبنوه الذكور : ثمانية .

ووزراؤه : أخوه أبو عبد الله . وأبو على بن أبى زيد الهنتاتى ، وأبو يحيى بن السيد أبى محمد بن السيد أبى حفص ، خلافته أربع عشرة سنة . وأحد عشر شهرا ، وأربعة أيام .

جوازه الى الاندلس

جاز فى خلافته مرتين :

الجواز الاول ، افتتح فيه مدينة شلب ، ودوخ بلاد الشرك .

وفى الجواز الثانى : سنة احدى وتسعين وخمسمائة ، كانت الهزيمة العظمى على النصارى ، التى لم يعهد مثلها . وهى التى تسمى وقعة الارك (5) ، وأمر كاتبه أبا الفضل بن أبى الطاهر (6) ، أن يوجز فى كتاب ، هذا الفتح . وأن ينحو فيه منحى كتب الصحابة رضوان الله عنهم أجمعين ؛ وكانت هذه الوقعة سنة احدى وتسعين وخمسمائة .

---

5 — Alarcos — ليس علما على بلدة او مدينة ، وانما هو اسم سهل واسع وراء جبال الشارات Sierra Morena وكانت هذه الجبال قد غدت على عهد الموحدين حاجزا بين الاندلس المسلمة ودولة قشتالة النصرانية ، وبجوار سهل الارك قامت قلعة رباح الشبيرة .

6 — هو — فيما يظهر — ابو الفضل جعفر بن محمد بن على بن طاهر القيسى ، من اهل بجاية ، شهر باسم ابن محشرة ، وكان من كتاب الموحدين . انظر المعجب ، ص : 244 . عنوان الدراية — ط . ثانية ص : 83 . رسائل موحدية — ط . الرباط 1941 ، — حيث اورد عدة رسائل من انشائه .

وكانت مدته أربع عشرة سنة واحد عشر شهر . وأربعة أيام ، ولما دنت وفاته رحمه الله ، جمع بنيه . والموحدين . ووصاهم بوصايا منها : أيها الناس أوصيكم بتقوى الله . وأوصيكم بالايتام واليتيمة ، فقال له الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن الشيخ أبى حفص محمد بن يحيى الهنتاتى : يا سيدنا ومولانا ، ومن الايتام واليتيمة ؟ فقال : الايتام أهل جزيرة الاندلس ، وهى اليتيمة ، فاياكم والغفلة عما يصلحها من تشييد الاسوار . وحماية الثغور وترتيب أجنادها ، وتوفير رعايتها ، ولتعلموا أعزكم الله تعالى أنه ليس فى نفوسنا شىء أعظم من همها ، ولو مد الله لنا فى الخلافة الحياة لم نتوان فى جهاد كفارها ، حتى نعيدها دار إسلام (7) ، ونحن الآن قد استودعناها الله تعالــى ، وحسن نظركــم فيها ، فانظروا للمسلمين ، وأجروا الشرائع على منهاجها ، وكانت وفاته بمراكش فى ربيع الاول سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، ودفن بحاضرة تينمال لصق أبيه وجده ، وولى بعده رحمه الله ابنه (8) :

محمد الناصر لدين الله

كنيتــه : أبو عبد الله ، الخليفة . تلقب بالناصر لدين الله .

بنــوه : ثلاثة ، أكبرهم أبو يعقوب يوســف المنتصر ، الوالى بعده .

وزراؤه : استوزر رجلا خاملا ، يعرف بابن منسا نكث به

---

7 — فى د : ايمـــان .
8 — انظر البيان المغرب : 3/206 — 211 روض القرطاس : 230 — 231 . تاريخ الدولتين : 16 — 17 .

الناس عليه يوم العقاب ، وكانت خلافته خمس عشرة سنة ، وأربعة أشهر ، وثمانية عشر يوما ، وهو الذى ولى على افريقية شيخ الموحدين أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبى حفص عمـــر بن يحيى الهنتاتى ، جد ملوكها الآن .

جـــوازه الى الانـــدلس

سنة سبع وستمائة وأقام فيها نحو عامين (9) ، وافتتح معقل شلبترة (10) ، وفى صفر فى سنة تسع وستمائة ، كانت عليه وعلى المسلمين الهزيمة العظمى ، التى فنى فيها أهل المغرب والاندلس ، الشهيرة بكائنة العقاب (11) ، وفى اثرها عاد ثاقلا الى حضرة مراكش ، واغتنم من أجلها غما كبيرا ، كان السبب فى وفاته بمراكش فى شعبان سنة عشر وستمائة ، وولى بعـــده ابنه (12) :

يوسف المنتصر بالله

كنيتـــه : أبو يعقوب ، تلقب بالمنتصر بالله ، لم يعقب .

وزيره : الشيخ عبد الله بن وانودين .

---

9 — فى د : سنتـــين .

10 — Salvatierra حصن فى منطقة قلعة رباح على مقربة منه جـــرت معركة الارك ، وقلعة رباح Calatrava قلعة حصينة احدثها الامويون وسط الطريق بين قرطبة شمالا وطليطلة جنوبا .

11 — موقع بين جيان وقلعة رباح ، وهو ليس علما على بلدة او مدينة ، وانما هو اسم لهذه المعركة ، نظرا لكونها وقعت فعلا فى عقاب (ج : عقبة) واوعار بجبال الشارات .

12 — روض القرطاس : 231 — 241 .

بويـــع : وسنه عشرة أعوام ، وكانت خلافته عشر سنين ، وأربعة أشهر . ويومـــين ، وفى مدته تهدنـــت البلاد الاندلسيـــة والافريقية من غير منازع ولا معاند ، لم تكن له حركة تذكر ، ولا غزوة تشهر . ولا خرج من حاضرة مراكش ، الا لمدينة تينمال ، على عادتهم فى زيارة المهدى ، وكانت أيامه هادنة ، ليس فيها كبير مفاتنة . ومدته كانت آخر ضخامة الدولة الموحدية .

وفاته بحاضرة مراكش فى ذى الحجة سنة عشرين وستمائة، وولى بعده عم أبيه رحمهم الله تعالى .

الخليفة أبو مالك عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن

كنيتـــه : أبومالك .

كانت مدته ثمانية أشهر ، وتسعة أيام .

خالف عليه عبد الله بن أخيه يعقوب المنصور ، فأشهد على نفسه بالتخلى عن الخلافة فى شعبان سنة احدى وعشريـــن وستمائة .

قال الملاحى (13) : يذكر عنه أنه كان مجاب الدعوة ، واليه ينسب قصر نجد ، بحضرة غرناطة ، والدار البيضاء الملاصقة له .

وفاته بعد تخليه عن الخلافة بثلاثة أيام ، وولى بعده ابن أخيه ، رحمهم الله أجمعين :

---

13 — هو محمد بن عبد الواحد بن ابراهيم الملاحى ، منسوب الى قرية الملاحة ، من قرى غرناطة ، له مؤلفات منها « تاريخ علماء البيرة وانسابهم وابنائهم » ، ينقل عنه كثيرا ابن الابار فى « التكملة » وابن الخطيب فى « الاحاطة » ، توفى سنة 619 هـ . انظر التكملة لابن الابار . ط . القاهرة ، رقم : 1604 .

الخليفة أبو محمد عبد الله العادل بن يعقوب المنصور

كنيتــه : أبو محمد ، تلقب بالعادل بالله .

كانت خلافته (14) ثلاث سنين ، وثمانية أشهر ، وتسعــة أيــام .

وفاته : سنة أربع وعشرين وستمائة ، وولى بعده أخوه :

الخليفة المأمون أبو العلاء ادريس بن يعقوب المنصور

كنيتــه : أبو العلاء ، تلقب بالمأمون .

كانت خلافته خمس سنين وثلاثة أشهر ، وكانت له نفس كبيرة ، وكان عالما كاتبا أديبا فصيحا بليغا ، ذا نجدة ، ورأى وحزم (15) ، الا أن دولته كانت مزاحمة بأبى زكريا يحيى بن الناصر ، فلم يتأت له معه تمهيد البتة .

بنوه : أبو محمد عبد الواحد الرشيد ، الوالى بعده ، وعبد العزيز ، وعثمان ، وأبو الحسن على السعيد ، الوالى بعد أخيــه الرشيد .

ووزراؤه : أبو زكريا بن أبى عامر (16) ، وكانت له بالاندلس لما كان واليا عليها وقائع كثيرة ، وهو الذى بنى قصر السيد (17)

---

14 ــ فى د : مدتــه .
15 ــ فى ك : وعزم .
16 ــ كذا فى ط . عياش ، وجاء فى د : ابن ابى الطاهر ، وفى ك : ابن ابى العمر ، وفى هـ : ابن ابى القمر ، وهو فى الاحاطة : 424/1 « ابن ابى العمرى » ، ويبدو ان محقق الاحاطة اعتمد فى ضبط عبارته على نص الحلل ــ ط . تونس ــ .
17 ــ فى ك : الكبير .

بمالقة ، واليه ينسب ، وكان ذلك منه سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، وبرأيه واختراعه ، كان جميع بنائه .

وهو الذى أمر بزوال اسم المهدى من السكة وغيرها ؛ ومن الخطبة ، وأزال اسمه من جميع (رسوم) الموحدين ، مما كان العمل به فى سائر دولتهم .

وكتب فى ذلك رسالة بخط يده ، ومن انشائه ، وبعث بها الى الاقطار ، ونصها :

من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ، الى الطلبة والاشراف والاعيان والكافة ، ومن معهم من المؤمنين ، ومن المسلمين ، أوزعهم الله شكر نعمه الجسام ، ولا أعدمهم طلاقة أوجه الايام [illegible] ، فانا كتبناه لكم ، كتب الله لكم عملا منقادا ، وسعدا وقادا ، وخاطرا سالما ، لا يزال على الطاعة مقيما ، من حضرة مراكش كلأها الله ، وللحق لسان قاطع ، وحكم ساطع ، وقضاء لا يرد ، وباب لا يسد ، وظلال على الآفاق ، تمحو النفاق .

وبعد فالذى نوصيكم به تقوى الله العظيم ، والاستعانة به ، والتوكل عليه ، ولتعلموا أننا نبذنا الباطل ، وأظهرنا الحق ، وأن لا مهدى الا عيسى بن مريم ، روح الله ، « وان جرى محله اللسان لا يسمى (18) » ، وما سمى مهديا الا أنه تكلم فى المهد (19) ، فتلك بدعة قد أزلناها ، والله يعيننا على هذه القلادة

---

18 — كذا فى ط . عياش ، وفى ك : لا توسى ، وفى ه : توسى ، وسقط نص الرسالة من ط . تونس ، ولا يخفى ما فى العبارة من اضطراب ، وهى ليست فى نص ابن عذارى : 267/3 .

19 — كذا ، رغم انه من المجمع عليه ان اصل الكلمة من الهداية من الضلال .

التى تقلدناها ، وقد أسقطنا اسم من لم تثبت له عصمة ، فلذلك أزلنا عنه رسمه ، فيمحى ويسقط ولا يثبت ، وقد كان سيدنا المنصور هم أن يصدع ، بما به الآن صدعنا ، وأن يرغع عن الامة الحزن الذى رفعنا ، فلم يساعده لذلك أمله ، ولا أجله لزواله الا أجله ، فقدم على ربه بنية صدق ، خالص الطوية ، واذا كانت العصمة لم تثبت للصحابة ، فما الظن بمن لم يدر بأى يد يأخذ كتابه ، بل هم قد ضلوا وأضلوا ، وتلفوا فى ذلك وزلوا ، ما تكون لهم الحجة على تلك الحاجة ، اللهم اشهد أننا تبرأنا منهم براءة أهل الجنة من اهل النار ، ونعوذ بك من أمرهم الرثيث ، وفعلهم الخبيث ، لانهم فى المعتقد من أهل النار ، وانا نقول فيهم ما قال (نبى الله نوح عليه وعلى [20]) نبينا أفضل الصلاة والسلام : « رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا (21) » ، والسلام .

وبعث بها الى الاقطار ، وهى شهيرة . وفى شهر رمضان المعظم سنة سبع وعشرين وستمائة ، قتل المأمون بمراكش من مخاليفه الناكثين لبيعته ، بفتوى القاضى المكيدى ، أعدادا لا تحصى ، وساق من رؤوسهم الى حاضرة مراكش أربعة عشر ألف رأس مقطوعة ، وقيل أكثر .

حدث السيد أبوزيد بن السيد أبى زكرياء أنه وصله كتاب المأمون يخبر بأن عدد الرؤوس المقطوعة كانت أربعة عشر ألفا ، وعلقت بأسوار مراكش فى زمان الحر ، وشدة القيظ ، فتكلم معه كاتبه الفقيه أبوزيد الفزازى فى ازالتها ، وازالة الروائح

20 — زيد ما بين الحاصرتين كيما يستقيم السياق .
21 — نوح : 26 .

لكريهة عن البلد ، فقال له المأمون : ان هاهنا مجانين ، وهـذه الرؤوس أحراز لهم ، روائحها عطرة عند المحبين ، كريهة عنـد المبغضين ، ومما نظمه المأمون عند قتلهم ، فقال :

أهل الحرابـة والفسـاد مـن الـورى
يعـزون فى التشبيـه للذكـار (22)
ففسـاده فيـه الصـلاح لغيـره
بالقطـع والتعليـق فى الاشجـار
ذكارهم ذكـرى اذا مـا أبصـروا (23)
فـوق الجـذوع وفى ذرى الاسـوار
لـو عـم حكـم اللـه سائـر خلقـه
مـا كان أكثرهـم مـن أهـل النـار

وفاته رحمه الله بمراكش فى ذى الحجة سنة تسع وعشرين وستمائة ، وولى بعده ابن أخيه :

الخليفة يحيى بن الناصر أبى عبد الله محمد بن يعقوب المنصور بالله

كنيتـه أبوزكريا ، تلقب بالمعتصم بالله .

كانت مدته تسع سنين ، وكانت أيامه كلها نكدة ، لم يستقم له الأمر الا نحو سنتين ، وفى سنة تسع وعشرين وستمائة ، تلاقى بالمأمون أبى العلاء ، بمقربة مراكش ، فانهزم يحيى ، وفر الى الجبـل .

22 ــ الذكار ، عبارة اصطلاحية تعنى « ما تذكر به الاشجار » لتلقيح الازهار لتغدو ثمارا .
23 ــ فى ك : ماصلبوا .

وفاته رحمه الله بفج عبد الله بين مدينتى فاس وتازة ، وذلك فى شوال سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، وولى بعده :

الخليفة عبد الواحد بن المأمون ادريس بن يعقوب المنصور بالله

كنيتـــه : أبو محمد ، تلقب بالرشيد .

كانت خلافته عشر سنين ، وخمسة أشهر ، وتسعة أيام .

وفاته رحمه الله بمراكش سنة أربعين وستمائة ، وولى بعده :

الخليفة أبو الحسن على بن المأمون أبى العلاء ادريس

كنيته : أبو الحسن ، تلقب بالسعيد .

كانت مدته خمس سنين ، وثمانية أشهر ، وعشرين يوما ، فى مدته كان ظهور السلطان أبو يحيى يغمراسن بن زيان بتلمسان ، وتحرك اليه بالجيوش المغربية ، وحاصره بجبل تامزردكت (23) بأحواز تلمسان ، فصادفه السلطان أبو يحيى على حين غفلة ، فانحدر اليه من الجبل ، واغتنم منه غرة ، وقتله وتفرقت محلته .

وكانت وفاته رحمه الله فى صفر سنة ست وأربعين وستمائة ، وولى بعده :

---

23 م ـ وردت فى نص يحيى بن خلدون ، فى كتابه نجمه الرواد ـ ط . الجزائر 1904 ـ ص : 113 ، حيث قال : « جبل تامزردكت بمجاورة جنوب وجدة » .

الخليفة عمر المرتضى بن السيد أبى ابراهيم اسحق بن أمير المؤمنين أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

كنيته : أبوحفص ، تلقب بالمرتضى .

كانت مدته ثمان عشرة سنة ، وتسعة أشهر ، واثنين وعشرين يوما ، وفى مدته استولى الامير أبو يحيى بن عبد الحق على مدينة تازى ، واستولى أيضا فى مدته على مدينة فاس .

وفى مدته ثار فى سبتة الفقيه أبو القاسم بن الفقيه العالم أبى العباس الغزفى اللخمى ، فى سنة سبع وأربعين وستمائة .

ووالده السيد اسحق بن يوسف ، هو الذى بنى قصر السيد ، وهو القصر الكبير الذى على نهر شنيل ، المطلق عليه اسم القصر ، خارج غرناطة (24) ، وهو الذى بنى الرابطة أمامه سنة خمس عشرة وستمائة ، ولم تكن له فى مدته حركة ، الا ريارة قبر المهدى بحاضرة تينمال ، على عادة سلفه ، وكان له حظ وافر من العلم ، والادب ، وبراعة الخط ، ومن شعره :

ولما مضى العمر الا الاقل ... وحان لروحى فراق الجسد
دعوت الاهى مستعطفا ... ليصلح منى ما قد فسد
ويصلح نفسى وأخلاقها ... ويذهب عنها الريا والحسد
فسوق الرياء بها نافق ... وسوق العفاف بها قد كسد

خلعه الوالى بعده ، وفر من مدينة مراكش الى أزمور ، فقبض عليه فثقف بها ، الى أن وجه عليه الوالى بعده ، فقتل فى

24 — انظر الاحاطة : 125/1 .

أثناء الطريق ، وقبره معروف ؛ وفاته رحمه الله فى صفر سنة خمس وستين وستمائة ؛ وولى بعده رحمه الله :

الخليفة أبو العلاء ادريس الواثق بالله المعتمد عليه بن السيد أبى عبد الله محمد بن السيد أبى حفص عمر بن عبد المؤمن

كنيته : أبو العلاء ؛ ولقب بأبى دبوس ، لانه كان فى بلاد الاندلس لا يفارقه الدبوس ؛ فشهر به ، وتلقب بالواثق بالله والمعتمد عليه .

كانت مدته من حين استقراره بدار الخلافة بمراكش سنتين ، وأحد عشر شهرا ، وعشرة أيام .

وكانت أيامه نكدة ، لكثرة المخالفين عليه ، وهو الذى ثقف أولاد عمر المرتضى طول حياته (25) ، الى أن انقضت ، وأخرجهم من الثقاف السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المستولى على دولتهم ، وأجازهم الى الاندلس ، وحصلوا باشبيلية عند اذفنش صاحب قشتالة ، ثم انتقلوا الى حاضرة غرناطة باستدعاء السلطان أبى الجيوش نصر بن السلطان أبى عبد الله محمد بن محمد بن نصر سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ، ولما وصلوا اليه أحسن نزولهم ، وأكرم مثواهم ، وأجرى عليهم الارزاق ، وأثبت لهم الجرايات ، وهى باقية تجرى على من بقى من عقبهم الى هذا العهد .

وكانت وفاته بمراكش فى محرم سنة ثمان وستين وستمائة،

---

25 ــ فى د : مدته .

وبوفاته رحمه الله ، انقرضت دولة الموحدين بنى عبد المؤمن من المغرب ، ودرست آثارهم .

يحكى أن رجلا من الصالحين ببجاية أنشد فى منامه هذان البيتان ، فورخ ذلك اليوم ؛ فوجد يوم مقتل أبــى دبــوس ، وهمــا :

ملــك بنــى مؤمــن تولــى	وكان فــوق السماك سمكــه
فاعتبروا وانظــروا وقولــوا	سبحــان من لا يبيــد ملكــه

قال الوزير أبو الحسن بن سعيد العنسى : لما استولــى التهدم والخراب على معظم ديار مراكش بالفتنة المتصلة وانقراض دولة الموحدين ، وجدت على بعض قصورها مكتوبا بفحم :

ولقــد مــررت على رســوم ديارهـــم
فبكيتهــا والربـــع قــاع صفصـــف
وذكــرت مجــرى الجور فى عرصاتهــم
فعلمــت أن الدهــر فيهــم منصـــف

قال ابن سعيد : فتناولت بياضا من بقايا جيار ، وكتبت تحته :

لهفى عليهم بعدهم بمثالهـــــم	بالله قل لى فى الورى هل يخلف
من ذا يجيب مناديا لوسيلـــة	أم من يجير من الزمان وينصف
ان جار فيهم واحد من جملة	كم كان فيهم من كريم يعطــف

ورحم الله الوزير الحسيب ابن سعيد ، وشكر امتعاضه (26) لمواليــه .

---

26 ــ فى ك : مقامه لمواليــه .

وكانت مدتهم من أول ظهور المهدى الى وفاة أبى دبوس مائة سنة واثنتين وخمسين سنة ، فسبحان من لا يبيد ملكه ، ولا ينقطع سلطانه ، لا اله الا هو . وولى بعده :

السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق

ابن محيو بن أبى بكر بن حمامة بن محمد بن كرناط بن ورتاجن بن ماخوخ بن وجديج بن فاتن بن يدر بن يخفت بن عبد الله بن ورتيت بن المعز بن ابراهيم بن سجيح بن واتيت بن يصليتن بن مسرى ابن زاكيا بن ورشيك بن زانات بن جانا ابن يحيى بن تمزيت بن ضريس — وهو جالوت الاول ملك البربر — ابن رجيج بن ماذغيس الابتر بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان (27) .

استولى على ملك الموحدين ، واجتث شجرتهم من فوق الارض ، وورث سلطانهم ، كان دخوله الى مراكش فى يوم عاشوراء سنة ثمان وستين وستمائة ، لما أتته البيعة من أهلها ، الا أنه تحول عنها الى مدينة فاس ، وصيرها دار الخلافة ، ومقر الامارة .

فكانت مدته من أول ظهوره ثمان وعشرين سنة وستة أشهر واثنين وعشرين يوما .

وقد كان ولى الامارة قبله اخوته الثلاثة : الامير أبو سعيد

27 — انظر روض القرطاس : 278 — 279 . الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية — ط . الرباط 1972 : 14 — 15 .

عثمان ، والامير أبو معرف محمد ، والامير أبو يحيى .

بنـــوه : أبو مالك عبد الواحد ـ ولـــى عهـــده ، درج فى حياته ــ وأبو يعقوب يوسف الوالى بعده ، وأبو زيان منديل ، وأبو سالم ابراهيم ــ درج فى حياته ــ وأبو عامر عبد الله ــ فقد فى حرب كانت بينه وبين المرتضى (28) .

فأما الامير أبو سعيد عثمان ، فتقدم أميرا على بنـــى مرين لما قتلت رياح والده رحمه الله ، وأخاه ادريس رحمه الله .

ولما تقدم خرج بهم الى غزو عرب رياح ، وحلف ألا يكف عنهم حتى يقتل بأبيه مائة شيخ من أشرافهم ، فقتل منهم خلقا عديـــدا .

وكان أول من بايعه من أهل المغرب : هوارة ، وزكارة ، ثم تسول ، ومكناسة ، ثم بطوية ، ثم فشتالة ، ثم سدراتة ، ثم بهلولة ، ومديونة ، هؤلاء هم السابقون لبيعته ، فوضع عنهم الخراج ، وأخرج اليهم الحفاظ ، وكان ذلك سنة أربع عشرة وستمائة .

وصالح أهل فاس ، وتازى ، ومكناسة ، وقصر عبدالكريم على أموال معلومة ، يؤدونها اليه فى كل سنة ، واستمرت حاله الى أن اغتاله علج له كان رباه صغيرا ، ضربه بحربة فى نحره ، فمات من حينه ، رحمه الله سنة ثمان وثلاثين وستمائة .

فكانت امارته على مرين وبوادى المغرب ، من يوم وفاة والده الأمير ابى محمد عبد الحق رحمه الله ثلاثا وعشريـــن سنة ، وسبعة أشهر .

---

28 ــ الم بنسخة د من هنا سقط كبير .

وأما الامير أبو معرف محمد ، فاجتمع عليه أشياخ بنى مرين ، لما قتل أخوه أبو سعيد عثمان رحمه الله ، وبايعوه على السمع والطاعة ، وأن يحاربوا من حارب ، ويسالموا من سالم ، فاستقام له أمرهم ، وسار بسيرة أخيه ، وفتح كثيرا من جبال المغرب وبواديه ، وكان شهما بطلا شجاعا ،لم يفتر فى أيامه عن قتال ، عارفا بمكائد الحروب ، وخدعها ، فكان كما قال فيه الراجز :

ثم ولى من بعده محمد	وكان فى أموره مسدد
فكان لا يفتر عن قتال	مواظبا للحرب والنزال
كم عسكر لاقى وكم حشود	ومن جموع جمة الجنود
وكل جيش جاء من مراكش	أفناه بالحروب والتناوش
نهاره وليله طعان	لكنه مؤيد معان

ولم يزل يحارب جيوش الموحدين ، فيرجعون عنه خاسرين، وان السعيد كان قد بعث اليه فى مدته بجيش كثيف من عشرين ألفا من الموحدين والعرب وهسكورة ، وقواد الروم ، فالتقى الجمعان بأغلان من أحواز فاس ، فكانت بينهم حروب عظيمة ، من أول النهار الى آخره ، انجلت عن قتل الامير أبى معرف رحمه الله ، قتله زعيم من الروم فى المعترك ، وانهزمت بنومرين ، لما توفى الامير أبو معرف ، وذلك فى عشى يوم الخميس التاسع لجمادى الاخيرة سنة اثنتين وأربعين وستمائة .

وأما الامير أبوبكر ، أبو يحيى : (29) فولى بعد أخيه أبى

29 — هو ابوبكر بن عبد الحق ، كانت كنيته : ابو يحيى .

معرف ، وكانت أمه حرة عبد الوادية (30) ، وكان مطلق اليدين يرمى بحربتين فى حالة واحدة ، ولى بمكان أخيه ، وكان أول شىء فعله أنه جمع أشياخ بنى مرين ، وقسم عليهم ما كان بيده من المغرب ، فأنزل كل قبيلة فى ناحية منه ، وجعل لها ما نزلت فيه من الارض ، وما غلبت عليه من البلاد .

ونزل بجبل زرهون ، وكان يقاتل منه أهل مكناسة حتى تغلب عليها سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، وفى سنة ست وأربعين وستمائة ملك مدينة فاس بعد موت السعيد .

وكانت وفاته سنة ست وخمسين وستمائة ، رحمه الله ، مرض بفاس ، ودفن بداخل باب الجيزيين من أبواب عدوة الاندلس ، بازاء قبر الشيخ الصالح أبى محمد الفشتالى ، رحمه الله . هذا تلخيص الخبر عن هؤلاء الامراء الثلاثة ، رحمهم الله .

وقد كان (31) أبوهم الامير أبو محمد عبد الحق ، رحمه الله، قام بأمر بنى مرين بعد وفاة والده الامير أبى خالد محيو بن الامير أبى خالد محيو بن الامير أبى بكر سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة .

وكان الامير أبو محمد عبد الحق مشهورا بالتقوى ، والدين ، وكانت بينه وبين عرب رياح حروب ووقائع ، قتل فى أثنائها هو وولده ادريس فى سنة أربع عشرة وستمائة ، حسبما تقدم قبل ، وقد كان والده الامير أبو خالد محيو بن أبى بكر رحمه الله ، شهد غزوة الارك ، مع أمير المؤمنين يعقوب المنصور متطوعا ، فعقد له

30 — اى من الفرع المرينى الذى استقر فى الجزائر .
31 — بداية سقط فى المطبوع .

فى ذلك اليوم على من فى عسكره من زناتة ، وأبلى بـلاءا حسنا ، وتوفى رحمه الله سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ببلاده من قبلة الزاب بافريقية ، بعد انصرافه من غزوة الارك المذكورة ، من جراحات نالته فيها ، فانقضت عليه ، فمات شهيدا ، وفى انتقالهم الى المغرب ، قال بعض الشعراء :

قدمت مرين الى بلاد مغـرب　　والسعد يصحبها بنيل المطلب
فى عام عشرة كان بدء دخولهم　　من بعد ست مئين فاحفظ واكتب

وقال أبو فارس عبد العزيز الملزوزى فى جزء :

فى عام عشـرة وسـت مائـة　　أتوا الـى المغرب مـن البرية
جاءوا من الصحراء والسباسب　　على ظهـور الخيل والنجائـب
كمثل ما قد دخل الملثمـون　　من قبل ذا وهم ميممون (32)

فكان أول ظهورهم بالمغرب فى مـدة أبى يعقـوب يوسف المستنصر بن الناصر من الموحدين رحمهم الله .

قال كاتب هذا المختصر : لا يفى هذا ببسط القول وشرح الجزئيات ، واستيفاء التعريف ، اذ لم يكن من شرط الكتـاب أولا قصد التطويل فيه ، ولا بنى موضعه عليه ، لكن نستوفى فى ذلك ان شاء الله فى موضع يفرد له ، وكتاب يختص به ، تورد فيه جميع الدولة المرينية ، ويذكر فيه ما يحصل لليد من مناقبهـم السنية ، ان قضى الله بذلك ويسر .

فأرجع الى ما كنت بسبيله من نسق الملوك ، وتاريخ المدد ، وان السلطان أبا يوسف يعقوب ابن عبد الحق كان قد جاز الى

32 ــ انظر روض القرطاس : 282 ــ 283 . الذخيرة السنية : 26 ــ 27.

الاندلس (33) فى خلافته أربع مرات :

الجــوز الاول

سنة أربع وسبعين وستمائة ، من قصر المجاز .

وفى هذه السنة قتل اليهود بفاس .

وفى شوال منها ابتدأ ببناء فاس الجديــد ، بخارج مدينــة فاس ، وهى المدينة البيضاء ، وأتمها فى ذى الحجة سنة سبــع وسبعين وستمائة .

الجـــواز الثانـــى

سنة ست وسبعين وستمائة من قصر المجاز ، الى طريف ، قاصدا الى مدينة اشبيلية ، دخل اليها على جهة رندة ، وكان معه فى هذه العزوة ابناه الاميران : أبو يعقوب ، وأبو زيان منديل ، ودخلوا قرى الشرف .

الجـــواز الثالـــث

سنة احدى وثمانين وستمائة ، شرع عند ذلك فى بناء سور « البنية » بالجزيرة الخضراء ، واجتمع بصخرة عباد ، (33 م) من أحواز رندة ، مع صاحب قشتالة ، ورغب منه فى اعانته على القائم عليه من أهل ملته .

---

33 ــ نهاية الزيادة من النسخ الخطية ، ويبدو أن صاحبها نهل معلوماته من الذخيرة السنية .

33 م ــ كذا فى الاصل ، وهو موافق لنص القرطاس المطبوع ــ ص 306 ــ ، وجاء فى نسخة خطية منه خاصه « بركة عناد » .

الجـــواز الرابـــع

كان سنة أربع وثمانين وستمائة ، وجاء معه ابناه الاميران أبو يعقوب ، وأبو زيان منديل ، وحاصر فى هذا الجواز مدينـــة شريش مدة مـــن أربعة أشهر ، وذلك فى سنـــة خمس وثمانيـــن وستمائـــة .

وفاته « بالبنية » من الجزيرة الخضراء ، فى محرم سنـــة ست وثمانين وستمائة ، ونقل منها الى سلا (34) ، رحمة الله عليه ، وفى أيامه أنشئت الناعورة الكبرى ، على وادى مدينة فاس .

مولده سنة تسع وستمائة — وولى بعده ابنه :

السلطان أبو يعقوب يوسف بن أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق

كانت مدته احدى وعشرين سنة ، وتسعة أشهر ، ونصـــف شهـــر .

بنـــوه : أبو سالم ، وأبو حامد عبد الله ، وأبو سرحـــان مسعود ، الذى توفى بطنجة ، وعبد المؤمن .

وجاز الى الاندلس سنـــة تسعين وستمائـــة ، ونزل عـــلى الجزيرة ، وقد كان جاز اليها مع أبيـــه .

وحاصر تلمسان الحصار الطويل الشهير ، وعليها هلـــك ، وفاته بتلمسان فى ذى القعدة سنة ست وسبعمائة ، ونقل منهـــا الى سلا (35) ، وولى بعده رحمه الله حفيده .

34 — كذا فى الاصول ، والصحيح « شالة » فى مدينة الرباط ، حيث مقبرة المرينيين الشهيرة ، والمعروف انه اسم سلا كان يطلق فى الماضى على منطقتى الرباط وسلا .

35 — انظر روض القرطاس : 376 — 388 .

السلطان أبو ثابت عامر

ابن الامير أبى عامر عبد الله بن السلطان أبى يقوب بن السلطان أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق

وذلك بتلمسان ، بعد اختلاف وقع ، ونزاع انجلى الامر فيه عن قتل جماعة من أكابرهم ، رحمهم الله .

كانت مدته سنة واحدة وثلاثة أشهر ، وعمره أربع وعشرون سنة ، وفاته بأحواز طنجة فى صفر سنة ثمان وسبعمائة ، ودفن فى قصبتها ، ثم نقل الى شالة فدفن فيها ملاصقا لجده أبى يعقوب رحمه الله . وولى بعده أخوه :

السلطان أبو الربيع سليمان

ابن الامير أبى عامر عبد الله بن السلطان أبى يوسف يعقوب

تصير له الملك بعد أخيه ، وبويع له بطنجة .

وفى مدته عام تسعة وسبعمائة عادت سبتة الى ايالتهم .

كانت مدته سنتين وأربعة أشهر ، وثلاثة وعشرين يوما ، وفاته بتازى ، فى مستهل رجب الفرد سنة عشرة وسبعمائة ، وهو مدفون بصحن مسجدها ، ولم ينقل . وولى بعده رحمه الله عم أبيه :

السلطان أبو سعيد عثمان

ابن السلطان أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق

مولده فى حياة جده ، سنة أربع وسبعين وستمائة .

كانت مدته عشرين سنة ونصف سنة .

وفاته فى ذى القعدة سنة احدى وثلاثين وسبعمائة ، بخارج فاس ، اثر مقدمه من تلمسان .

وولى بعده رحمه الله ابنه :

السلطـــان أبو الحســـن عـــلى

كانت مدته عشرين سنة ، وأربعة أشهر .

وفاته رحمه الله بجبل هنتاتة من مراكش ، فى آخر شهـر ربيع الاول المبارك من عام اثنين وخمسين وسبعمائة .

وولى بعده رحمه الله ابنه :

السلطـان أبو عنـان فـارس

تلقب بالمتوكل على الله أمير المؤمنين .

كانت مدته سبع سنين ، وتسعة أشهر .

وفاته فى الرابع والعشرين من ذى الحجة عام تسعة وخمسين وسبعمائـة .

وولى بعده ابنـه :

السلطـان أبوبكـر السعيـد

كانت مدته سبعة أشهر وعشرين يوما .

ولى بعده رحمه الله عمه :

السلطـــان أبو سالـــم ابراهيـــم بن السلطـــان أبى الحســـن

تلقب بالمستعين بالله .

كانت مدته سنتين ، وثلاثة أشهر ، وخمسة أيام .

وولى بعده أخوه :

السلطان أبو عامر تاشفين بن السلطان أبى الحسن

كانت مدته ثلاثة أشهـــر .

وولى بعده ابن أخيه :

السلطان أبو زيـــان محمد بن الامير أبـــى عبد الرحمن يعقـــوب بن السلطـــان أبـــى الحســـن

كانت مدته نحو خمسة أعوام

وفاته عام ثمانية وستين وسبعمائة .

وولى بعدد رحمه الله عمه :

السلطان أبو فارس عبد العزيز بن السلطـــان أبـــى الحســـــن

كانت مدته نحو خمسة أعـــوام .

ووفاته بتلمسان فى شهر ربيـــع الاول سنة ثلاث وسبعـــين وسبعمائـــة .

وولى بعده ابنـــه :

وسنه اذ ذاك خمسة أعوام .

كانت مدته نحو سنتين ، وخلع فى محرم من سنة ست وسبعين وسبعمائة .

وولى بعده بحضرة مراكش :

السلطان أبو زيد عبد الرحمن المتوكل على الله ابن الامير أبى الحسن على بن السلطان أبى على عمر بن السلطان أبى سعيد عثمان بن السلطان أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق

استقر بحاضرة مراكش فى شهر الله المحرم ، عام ستة وسبعين وسبعمائة ، وهو بها الى هذا العهد الذى ألفت فيه هذا المجموع ، وهو يوم الخميس الثانى عشر ، لشهر ربيع الاول من سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة، عرف الله منه المسلمين عوارف الخير واليسر ، وأنجز لهم الموعود فيما هم فيه يرتقبونه من طلائع النصر ، وظهور هذه الملة الحنيفة على أشياع الكفر ، فيجب لذلك من المدة سبعة أعوام وشهران ، والله تعالى يجبر حاله ، ويسنى فى صلاح المسلمين مبتغاه وأمله ، بفضله وكرمه .

وتخلص من هذا الاختصار ، المبنى وضعه على حديث الحصار ، وما اجتلبته القصص من الانباءات ذوات العبرة والاستبصار ، أن مدينة مراكش يجب لها من السنين الى هذا الزمان من لدن اختطاط المكان ، والاحتلال بها بالسكان ، وتصيرها

بالعمران ، بعد أن كانت مربضا للاسد ، ومسكنا للغزلان ، حسبما تقدم قبل بأوضح بيان : ثلاثمائة سنة وعشرون سنة، منها من حين تحليقها بالسور البعيد القطر ، الطويل الخطر ، بسبب ما ذكر من ظهور المهدى على المرابطين مائتا سنة وثلاث وستون سنة ، والمختص بدولة ملوك المرابطين رحمهم الله من بدء الاعتمار تسع وسبعون سنة .

والمختص بدولة الموحدين ، رحمهم الله ، من حين استيلائهم على دار الخلافة بمراكش ، واستقرارهم بحاضرتها ، على حسب ما تقدم فى موضعه مائة سنة وست وعشرون سنة .

والمختص بدولة ملوك بنى مرين ، أعزهم الله ، من حين انقراض دولة الموحدين ، الى هذه الغاية مائة واحدة وخمس عشرة سنة .

فالمجتمع من هذا التفصيل ، الذى لا يليق جهله ، بمن عنى بلاخبار من ذوى الادراك والتحصيل ثلاثمائة سنة وعشرون سنة ، مبدؤها سنة اثنتين وستين وأربعمائة ، حسبما تقدم قبل .

ومبلغ عدد خلفائهم رحمة الله عليهم اثنان وثلاثون ، ويتفسر بعد ذلك ان شاء الله تعالى :

المرابطون رحمهم الله ، أربعة وهم : يوسف بن تاشفين ، ثم بعده ابنه على بن يوسف ، ثم بعده تاشفين بن على ، ثم بعده ابنه ابراهيم بن تاشفين .

وقد تقدم التعريف بنسبهم ، وأنهم يرجعون الى حمير ،

وأنهم خرجوا من اليمن الى الصحراء الى المغرب ، وفى ذلك يقول أبو فارس عبد العزيز الملزوزى فى ارجوزته :

مرابطون أصلهم من حمير قد بعدت أنسابهم من مضر
وقد رأيت فى كتاب النسب قولا به أعجز أهل الأدب
بأن صنهاج سليل حمير وهو ابنه لصلبه لا العنصر
أكرم به من نسب صريح وقل لا تخف من التصريح
عدلهم وفضلهم مشهور ومجدهم وسعيهم مشكور(36).

والمرابطون الذين هم من لمتونة ، يرجعون الى صنهاجة ، وصنهاجة ترجع الى حمير ، وحمير أحد العشرة من أولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عامر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام .

وكان هؤلاء العشرة تيامن منهم ستة ، وتشاءم أربعة حسبما ورد فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان حمير ممن تيامن ، واتخذ اليمن قرارا ، ثم انتقلوا من اليمن الى الصحراء ، ومن الصحراء خرجوا الى المغرب . هذا تلخيص نبأ المرابطين رحمهم الله .

والموحدون : أربعة عشر ، أولهم الامام المهدى محمد بن تومرت ، ثم بعده خليفته وأحد العشرة من أصحابه ، أبو محمد عبد المؤمن بن على ، ثم بعده ابنه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، ثم بعده ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور ، ثم بعده ابنه أبو عبد الله محمد الناصر ، ثم بعده ابنه أبو يعقوب يوسف

36 — انظر روض القرطاس : 120 . نظم السلوك ص 98 من طبعة الرباط ، مع خلاف .

المنتصر ، ثم بعده عم أبيه أبو مالك عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن ، ثم بعده ابن أخيه العادل ، أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور . ثم بعده أخوه المأمون ، أبو العلاء ادريس بن يعقوب المنصور . ثم بعده ابن أخيه المعتصم ، أبو زكريا يحيى بن محمد الناصر بن يعقوب المنصور ، ثم بعده ابن أخيه الرشيد أبو محمد عبد الواحد بن المأمون ، أبى العلاء ثم بعده أخوه السعيد أبو الحسن على بن المأمون ، ثم بعده ابن عم والده المرتضى أبو حفص عمر بن السيد أبى ابراهيم اسحق بن يوسف بن عبد المؤمن ، ثم بعده ابن عم والده أبو دبوس الواثق بالله أبو العلاء ادريس بن السيد أبى عبد الله محمد بن السيد أبى حفص عمر بن عبد المؤمن ، الذى انقرضت على يده دولتهم

وأما نسب الامام المهدى فقد تقدم قبل هذا ، عند ذكره ، وأنه يرفع الى الحسن بن على بن ابى طالب رضى الله عنه ، وما فوقه من النسب الشريف مشهور ، أصله من هرغة من بلاد السوس الاقصى هو بلاد ماسة ، وهو على يمين القبلة من جبل درن الى أن يتصل بالصحراء .

وأما نسب عبد المؤمن ، فقد تقدم فى اسمه وأنه يرفع الى قيس بن عيلان ، يقال فيه قيس عيلان ، واسمه الياس ، وهو أبو قبيلة من مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وأصل عبد المؤمن من كومية هنين ، زناتى الاصل ، ومن موضع يعرف بتاجرا على ثلاثة أميال من مرسى هنين ، من عمل تلمسان ، وطن زناتة .

انقضى الكلام فى الموحدين ، وأعود الى من ولى بعدهم على جهة الاختصار :

منهم من درج ، ومنهم من عز وخلف . قد تقدم نسبهم .

قال الفقيه الكاتب أبو على المليانى (37) : يرجع نسبهم الى بنى مرين ، وبنو مرين يرجعون الى زناتة ، وزناتة من أولاد جنا بن يحيى بن ضريس بن زحيك بن مادغيس بن بر ، وهو فى بعض الاقوال : ابن قيس بن عيلان ، وقد كان جماعة من العلماء ممن له اعتناء بهذا الشأن ينسبونهم لبر بن قيس المذكور ، وأجاز فى كتابه أنهم عرب صرحاء ، وانما تبربـــروا بالمجاورة والمخالطـــة للبربر

قال ابن رشيق : ان البربر بأجمهم من واد جالوت ، الا قبيلتى صنهاجة وزناتة ، فانهما ينتسبان الى حمير .

وفى ذلك يقول صاحب الرجز :

فجـــاورت زناتـــة البرابـــرا ... فصيـــروا كلامهم كمـــا ترى
ما بدل الدهر سوى أقوالهم ... ولم يبدل مقتضى أحوالهـــم
بل فعلهم أربى على فعل العرب ... فى الحال والآثار ثـــم الأدب
فانظر كلام العرب قد تبـــدلا ... وحالهـــم عـــن حاله تحـــولا
لا يعرفون اليوم ما الكـــلام ... ولا لهـــم نطـــق ولا افهـــام
وان تمـــادت بهم الاحـــوال ... لم تبق فى الدهر لهم أقـــوال
كـــذاك كانـــت قبلهم مريـــن ... كلامهـــم كالـــدر اذ يبيـــن
فاتخذوا سواهـــم خليـــلا ... فبدلوا كلامهم تبديـــلا (38)

37 — من كتاب الدولة المرينية ، نقل عنه صاحب القرطاس ، انظر ص : 275 .

38 — انظر روض القرطاس : 281 . الذخيرة اسنية : 19 . نظم السلوك : 68 . ولم يرد هذا الرجز فى المطبوع .

أصلهــــم

أصل بنى مرين من أحواز تلمسان ، قاعدة المغرب الاوسط ، ودار مملكة زناتة على قديم الزمان ، وكان وطنهم ما بينها وبين تاهرت من شرقها ، يجاورهم فى السكنى من زناتة بنو يغمراسن، وبنو تجين ، وبنو مغراوة ، وبنو راشد ، وغيرهم ، وكان غالبهم الفرسان .

قال ابن رشيق : أصل زناتة من الشام ، وكانت دارهـــم بفلسطين ، وملكها جالوت ، فلما قتله داود عليه السلام ، جــاءت البربر الى المغرب ، فانتشروا الى السوس الاقصى ، وقد وقــع ذكر البرابر ، فأشير الى طرف من أصول أنسابهم من جهة زناتة ، وغيرها على جهة الاختصار .

وأعياص البربر هم : هوارة ، ومغيلة ، وضريسة ، ومغراوة، وبنويفرن ، وبنودمر ريغ ، وسدراتة ، ومسطاسة ، وملزوزة ، ونفزة ، وبنو غجدامة ، وولهاصة ، ولواتة ، ومديونة ، ومطماطة ، وكتامة ، ومزاتة ، ولمطة ، ومديونة ، وعجيسة ، ومكناسة ، وزواغة ، وزواوة ، وصدغورة ، وزهيلة ، ومسارة ، وزداجة ، ومغرة ، ومصمودة ، وغمارة ، وبنـــو زروال ، وبنـــو سعيد ، وبنو سنجـــوم ، وبنو يازين ، وبنو خالـــد ، وبنو مرموشة ، وبنو شراحيل ، وبنو ورتجين ، ولماية ، وغير هؤلاء ، وهم بطون كثيرة ، وتفرعوا تفريعا عريضا ، ليس هذا الموضع محل بسط القول ، وتقصى الانباء ، انما بنى فيه على الاختصار ، واطراح التطويل .

فأعود الى ما كنت بسبيله من ذكر الملوك من بنى عبد الحق ؛ عددهم : أربعة عشر ملكا من ملوك مراكش ، أولهم السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق ، ثم بعده ابنه السلطان أبو يعقوب يوسف بن يعقوب ، ثم بعده حفيده أبو ثابت عامر بن الامير أبى عامر عبد الله بن السلطان أبى يعقوب ، ثم بعده أخوه السلطان أبو الربيع سليمان بن الامير أبى عامر عبد الله ، ثم بعده عم أبيه السلطان أبو سعيد عثمان بن السلطان أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، ثم بعده ابنه السلطان أبو الحسن على ، ثم بعده ابنه السلطان أبو عنان فارس ، ثم بعده ابنه السلطان أبوبكر السعيد ، ثم بعده السلطان أبو سالم ابراهيم بن السلطان أبى الحسن ، ثم بعده أخوه أبو عامر تاشفين بن السلطان أبى الحسن ، ثم بعده ابن أخيه السلطان أبو زيان محمد بن الامير أبى عبد الرحمن يعقوب بن السلطان أبى الحسن ، ثم بعده عمه السلطان أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان أبى الحسن ؛ ثم بعده ابنه السلطان محمد السعيد ، ثم بعده بقاعدة مراكش المذكورة السلطان أبو تاشفين عبد الرحمن بن الامير أبى يوسف بن عبد الحق ، الى هذا الزمان الذى تتعرف فيه أهل كلمة الايمان ، عوارف اليمن ، وعوائد الامان ، وذلك بسعادة مولانا الامام خليفة رب العالمين « **الغنى بالله** » ، أمير المسلمين ، كبير الملوك ، وقدوة الخلفاء ، المخصوص من الله بمزايا الاجتباء والاصطفاء ، عز الاسلام ، وبهجة الايام ، حامل الكل ، وكافل الكل ، أدام الله حياته ، وعصم الكريم ذاته ، بفضله وكرمه ،

فلقد أضاء الاسلام بحسن تدبيره ، وجميل سعيه ؛ وبدت شواهد الاغتباط على من أوى الى كنف رعيه ، حتى ملوك الاقطار مهما استشاروه يحمدون عاقبة تلك الاستشارة ، وتصدر وفودهم من بابه بأنجح رأى ، وأعظم بشارة ، فآمالهم اليه مصروفة ، وأحكامهم على سياسته الحسنة موقوفة ، فسبحان الذى خص هذه الايالة النصرية الخزرجية ، بخالص السريرة ؛ وكرم السجية ؛ وطوبى لمن نشأ فى خدمتها العزيزة تحت ظلال أكنافها ، ولحقت لابائه عناية أسلافها ، فلقد نال من حظ الدنيا والآخره مبتغاه ؛ وأمن من عدوان الزمان ووغاه ، على أنه من اطلع على أخبار الخلائق ، ونظر فى السير من العهد السالف يرى هذه الاندلس بوجودهم كفاها الله عميم جودهم ؛ كأن لم تمر أعاصيرها ، ولا عدم « منصورها » ولا « ناصرها » (39) ، أحيوا فيها رسوم العدل بعد عفائها ؛ وأربوا المحاسن المتعددة على خلفائها ؛ وأما ما يكابد فيها ، وما كان آباؤه قبله يكابدونه ، فباتصال العافية دون الادراك ،ومن دونه لا يعتبر حرب الزمان ولا هدونه ، ولا يعلم أن عدو الاسلام — وان وجد السلام — مازالوا يجاهدونه ، والله سبحانه هو الذى يجزى فعلهم من الخير ، الذى عنده عز وجل يجدونه .

ومع هذا فليس له أبقاه الله فى الروحة من أهل الزمان والغدوة ؛ الا اعمال الفكر فى مصالح الاندلس والعدوة ، يتكلف فى اصلاح ذات بين المسلمين أنهض الكلف ، ويكلف بتسكين أحوالهم

39 — اى المنصور بن ابى عامر ، وعبد الرحمن الناصر .

أشد الكلف (40) ، وقد ألف الآن بنيته الصالحة فى تلك العدوة بين القلوب ، وأغمـد بيده العزيـزة سيوف الفتنة بين الطالـب والمطلوب ، ما زال يجاهد فى اطفاء نارها ، من أولها وآخرها ، يتناول أمر المسلمين أحسن تناول ، فكم حقن من الدماء ، وتدارك من الذماء ، وفرج من الغماء ، وسكن من الدهماء ، فبصالح تدبيره يرتفع الشنئان والاختلاف ، ويغتنم الاتفاق والائتلاف ، وتستقيم أحوال كل فريق ، ويستأمن السلوك على كل طريق ، ويستقبل الناس هدوا مستأنفا ، ويعود العمران لتامسنا وأنفا (41) ، وأما أحواز أزمور ، فتصلح به الاحوال وتستقيم الامور ، وأما وادى أم الربيع ، فيرجع سوقا للشراء والبيع ، وأما وطن دكالة ، فعلى نظره الجميل وقف اتكالـه ، وأما بلاد صنهاجـة ، فتصلح وان مستها الحاجة ، وأما أهل وريكة وأغمات ، فببركة رأيه يهدى من عاش ، ويرحم من مات ، وأما أهل تنصغرت وكيك ، فما فى استقامة طاعتهم ريب ولا تشكيك ، وأما أهل جبل درن ، ما بقى فى خلقهم جماح ولا حزن ، وأما أهل تينمال ، فتتمشى أحوالهم على نهاية الكمال ، وأما قبيلة هسكورة ، فتصدر عنهم أفعـال مشكورة ، وأما أهل هنتاتة فيبدى كل واحد منهم خلوصة ومتانته ، وأما سائر الاشياخ والمزاورة (42) . فيودون بلادهم لبلادنـا مجاورة ، وأما أهل السوس الاقصى ، فيغترفون من الخير مـا

---

40 — كلف بالشىء عشقه وتعلق به .
41 — الاسم القديم لمدينة الدار البيضاء .
42 — جمع امزوار ، وهو الرئيس او المقدم فى الاسرة او العشيرة بـين قبائل المغرب .

لا يحصى ، وأما أهل جزولة ، فيرتفع عنهم ما يتوقعون نزوله ، وأما أهل سيف آسفى ، فيقولون على يد هذا الملك المجاهد الوفى ، عاملنا الله باللطف الخفى ، فتأمن البرابر ان شاء الله ، ويضعون أوزار حربهم ، وتصلح أحوال مصامدتهم وعربهم ، فتتوالد الخيل والابل ، وتكثر الماشية ، وتسكن بسعادة تدبيره كل فتنة ناشئة ، وتتصل بالعدوتين أيدينا وأيديهم ، وتصرف الوجوه الى أشياع الكفرة ، أعادينا وأعديهم ، فمساعيه الكريمة فيما يؤول لاجتماع الكلمة ، وانتظام أمر الامة المسلمة ، لا يعلمها الا الذى اختصه بها ، وفضله ، واختاره للخلافة فى أرضه وأهله ، فالله تعالى يحفظ بوجوده هذه الدولة ونظامها ، ويبقى لاظهار الدين دوامها بفضله وكرمه .

اللهم واحفظ ايالته الكريمة ، التى كرم منتهاها ، واشكر سعيه فى حوزة الاسلام التى دافع عنها وحماها ، اللهم واحفظ بحسن سيرته جميع الاحياء ، وأبلغه من فضلك أقصى الامانى ، وغاية الرجاء ، اللهم أبقه يحيى فى هذه الجزيرة رسوم طارق بن بن زياد ، وأدم لنا أيامه التى هى المواسم والاعياد ، انك قدير على اتمام الليالى والايام بالدوام .

وهذا ما حضر والسلام ، فتبليغ المنى متكفل لمن دعا لكاتبه على الدوام ، وصلى الله على سيدنا محمد سيد الأنام .



الفهارس

1 ـ اعلام الافراد

2 ـ اعلام الجماعات

3 ـ الاماكن

4 ـ المحتوى

1 ـ أعلام الأفراد

2 ـ اعلام الجماعات

3 ـ الأماكـــن

4 ـ المحتــــوى

الصفحة

الصفحة